تاييس

بقلم

أناتول فرانس

ترجمة

أحمد الصاوى محمد

دار الهلال



هذه الرواية

« تاييس » هي احدى روائع الأدب العالمي ، كتبها مؤلفها الكاتب الفرنسي الكبير أناتول فرانس « ١٨٤٤ – ١٩٢٤ » في سنة ١٨٩٠ ومن يومها طبعت هذه الرواية مئات الطبعات بمختلف لغات العالم ، واستطاعت أن تحمل كاتبها الى كل انحاء الدنيا ، ليصبح كاتبا مقروءا ومحبوبا وصاحب أسلوب جذاب يعشقه ملايين القراء .. وهذه الرواية بالذات تقدم الينا أجمل ما في أناتول فرانس ... خيال روائي خصب ، وقوة عاطفة جذابة ، وعمق فلسفي واضح ، وأسلوب موسيقي مشرق ، ولذلك كانت هذه الرواية متعة للعشاق والفلاسفة والفنانين وأصحاب العواطف الحارة وأصحاب العقول الرصينة على السواء .. وقد أتيح لهذه الرواية أن يترجمها كاتب وصحفي عربي كبير هو أحمد الصاوى محمد ، عرف بأسلوبه الجميل الممتع ، وقدم للمكتبة العربية ترجمات فريدة عن « مدام كورى » الشخصية الخالدة ، ومن الشعراء العالميين « بيرون » و « شيلى » و « هاينى » وغيرهم ، وها هي تحفة أناتول فرانس تقدمها روايات الهلال كاملة في ترجمتها العربية البديعة الرائعة

١٠ قروش

اللوتس

كانت الصحراء فى ذلك الزمان يسكنها النساك فى أكواخ لا تحصى، بنوها من الاغصان والصلصال ، وهى تمتد على شاطىء النيل متجاورة منثورة ، بحيث توافر لساكنيها الغايتان : العزلة ، والمؤازرة لدى الحاجة ، وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الاكواخ ، عليها شارة الصليب ، يقصدها الرهبان ايام العيد لاقامة الشعائر والمشاركة فى التبرك بالاسرار الدينية ، وكان على ضفة النهر اديار آهلة بالرهبان وكلهم قابع فى كسر صومعته الضيقة لا يتداتون الا ليذوقوا طعم الوحدة .

وعاش الرهبان المتبتلون والعاكفون فى زهد وتقشف ، وكانوا يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبلغون بقليل من الخبز والملح . وطمر بعضهم انفسهم فى الرمال متخذين الكهوف أو المقابر مساكن كانت غاية فى العزلة والانقطاع .

أخلدوا جميعا بأسباب التقشف ، فارتدوا ملابس من وبر الابل ، وكانوا بعد طول التهجد يفترشون الارض ، ويصلون وينشدون المزامير ، وقصارى القول ، ان هؤلاء الزهاد كانوا فى كل يوم يزاولون ضروب الصلاح والتقوى جميعا ؛ ولما كانوا يتأملون فى هول الخطيئة الاصلية (١) كانوا يحرمون ابدانهم كل متاع ولذة ، حتى العناية البسيطة التى لا غنى عنها وقاق رأى مهدهم ، وذلك اعتقادا منهم ان امراض البدن تطهر الروح ، وان اشرف حلية للجسم هى البثور والقروح ، وهكذا صدقت فيهم كلمة الانبياء : « يبتهج الفقر ويزهى » ...

(١) يطلق المسيحيون هذا الوصف على خطيئة آدم وحواء اذ عصيا ربهما بأكلهما الثمرة المحرمة فطردا بسببها من الجنة وعرضا هما وسلالتهما لعذاب الدنيا والآخرة ، ويعتقدون ان السيد المسيح قد نزل ليمحو اثر هذه الخطيئة ويخلص البشر ، ويفتح لهم من جديد ابواب الجنة . « المترجم »

وكان بعض نزلاء « طيبة » المقدسة يقضون اوقاتهم فى التنسك والتصوف ، بينما يسعى غيرهم فى تحصيل معاشهم بضفر الياف النخيل وخدمة الزراع المجاورين فى اثناء الحصاد بأجر معلوم ، اما الخوارج فكانوا يتهمون بعض الرهبان زورا بانهم يعيشون من قطع الطرق ومداخلة البدو الرحل نهبة القوافل . ولكن الحق ان هؤلاء الرهبان كانوا يحتقرون المال والثراء ، وكانت رائحة فضائلهم الزكية تتصاعد الى عنان السماء ...

وكان الملائكة يغدون على هيئة فتيان لزيارة الصوامع وبأيديهم عصيهم كالسائحين ، فى حين يتخذ الشياطين اشكال الاحباش أو الحيوان ويجولون بين النساك ليضلوهم ، وكان الرهبان عندما يذهبون فى الصباح يملاون من النبع اباريقهم يرون آثار اقدام الشياطين على الرمال .. وكان المتأمل بعين العقل فى حال «طيبة» الروحية يراها فى كل وقت ، وبخاصة فى الليل ، ميدانا للقتال بين النعيم والجحيم ...

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين هجوما عنيفا ، كان هؤلاء يدافعون عن انفسهم بأسلحة الصوم والتقوى والتقشف مستعينين بالله وملائكته ، وكانت شهواتهم البدنية تقسو عليهم احيانا وتخزهم وخزا يمزق احشاءهم ، فتتجاوب تحت قبة السماء ذات الكواكب صيحاتهم المزعجة وعواء الضباع الجائعة !.. وعند ذلك كانت الشياطين تبدو لهم فى صور فتانة تحول دون معرفة حقيقة امرهم . فيجزع رهبان طيبة اذ يرون فى صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند معاصريهم المترفين المنهمكين ، ولكن لما كان الصليب يعلو صوامعهم فانهم كانوا بنجوة من الغواية ، فتتخذ الشياطين النجسة اشكالها الحقيقية وتبتعد فى آخر الليل فى خجل وغيظ ؛ وكان يحدث ان يرى احدهم فى مطلع الفجر باكيا منتحبا يجيب كل من يسأله بقوله : « انني ابكي لان شبحا ممن يسكنون هنا قد ضربني بهراوته وردني مفضوحا ! .. »

اما شيوخ الصحراء فقد مدوا سلطانهم على الآثمين والجاحدين ، وكان صلاحهم فى بعض الاحيان صلاحا مروعا ، فقد اخذوا من الرسل سلطة معاقبة عصيان الله الحق ؛ وما من بد كانت فوق

ايديهم بحيث تنقذ من يصدر حكمهم عليهم ، وتناقل الناس ، حتى فى مدينة الاسكندرية ، ان الارض تشق لتبتلع الاشرار الذين تمسهم عصى هؤلاء الشيوخ الزاهدين ! .. ولهذا كانوا مرهوبي الجانب ، يخاف باسهم كل الذين يحبون حياة الانس ، ولا سيما اهل المساخر والمراقص ، والقساوسة المتزوجون وربات الخلاعة !

وقد ظهرت فضيلتهم وامتد نفوذها حتى ذلت لها الوحوش ، فكان اذا دنا اجل احدهم ، اقبل اسد وخط له بمخالبه مضجعا فيعرف القديس بهذا ان الله قد دعاه اليه ، فيتجه نحو اخوانه ويقبلهم قبلة الوداع ثم يرقد بالضراح لينام فى حضن ربه ...

وقد صعد « الطوان » الى قمة جبل كلزين بعد ان أربت سنه على المائة ، مصطحبا احب مريديه اليه وهما « مقار واماثاس » لم يبق فى طيبة كلها راهب ابر واصلح من « بافنوس » كاهن بلدة أنصينا (١)

حقا كان افرايم وسرابيون يحكمان فى كثيرين من الرهبان ، وكانا متفوقين فى خططهما الروحانية والزمنية ، وفى ادارة مناسكهما ، أما بافنوس فكان يراعى اقسى انظمة الصوم ، فيقضى ثلاثة ايام بلياليها لا يذوق طعاما ، وكان يرتدي عباءة من الصوف الخشن ، ويجلد نفسه صباح مساء ، وطالما انبطح على الارض معرغا جبهته فى التراب !

أما تلاميذه الاربعة والعشرون فبعد ان بنوا اكواخهم على مقربة من كوخه اقتدوا به فى تقشفه ، فاحبهم فى يسوع المسيح حبا جما ، وكان يحضهم دائما على التقوى ، وكان من ابنائه الروحيين رجال قضوا سنين طويلة فى قطع الطرق ، لكن وعظ هذا الاب الصالح هداهم سواء السبيل فدخلوا فى سلك الرهبنة ، وكانت طهارة عيشهم مما يشرف رفقاءهم ، ومنهم طاهى ملكة الحبشة الذى صار بعد ان هداه « كاهن انصينا » يذرف الدموع بلا انقطاع ! ومنهم ايضا الواعظ فلافيان ، وهو رجل عالم بضروب الكتابة وخطيب قدير ، على ان اعجب تلاميذ بافنوس كان فلاحا صغيرا يدعى بولس ، ولقب بالساذج لسلامة نيته التى لا حد لها ، ولشد

(١) قامت على اطلال مدينة انصنا بلدة « الشيخ عبادة » المعروفة بالصعيد .

ما ضحك الناس من سذاجته ، لكن الله شرفه بان يبعث له بالرؤي الصادقة واتم عليه نعمة النبوة .

وقف بافنوس حياته على تهذيب اتباعه وتثقيفهم ومزاولة العبادة والبحث والتنقيب فى تضاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواعظ والامثال ، فكان على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم تكن الشياطين التى هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة تجرؤ على الدنو منه ، واعتاد ان يجلس فى الليل فى ضوء القمر امام كوخه ، سبعة من جراء (١) بنات آوى منصتة بملء الهدوء والسكون ، وقيل ، بل تلك سبعة من الجن كان استبقاها ببابه لا تتعدى عتبته بقوة قداسته !

***

ولد بافنوس فى مدينة الاسكندرية من ابوين نبيلين وتأدب بأدب الدنيا ، ولشد ما املته اكاذيب الشعراء ! وكانت تلك الاكاذيب مغالطة لعقله مشوشة لافكاره فى ريق صباه ، حتى انه صدق ان طوفانا قد اغرق الجنس البشري كله فى عهد ديوقليس ! وجادل رفاقه فى الدرس فى طبيعة الله ، وصفاته ، ووجوده ، ثم استرسل فى الخلاعة ، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين ، وكان لا يذكر ذلك العهد من حياته الا بخجل واشمئزاز .

واعتاد فى تلك الايام ان يقول لاخوانه : « لقد غليت فى مرجل اللذات الكاذبة » !

يريد بذلك انه اكل اللحم المطبوخ جيدا ، واختلف الى الحمامات العامة !

ودرج على سنن الحياة فى عصره حتى بلغ العشرين ، وهذه المدة اجدر ان تسمى بالموت منها بالحياة ، ولكنه بعد ان تهذب على يدي الكاهن « ماكرين » خلق خلقا آخر وعاد رجلا جديدا .

وكذلك تغلغل الحق فيه ونفذ فى روحه — كما يقول — كالحسام ! فاعتنق عقيدة الصليب وعبد المسيح المصلوب ، وبقى سنة اخرى بعد تعميده ، بين الخوارج مقيدا بسلاسل العادة .

ففى ذات يوم سمع واعظا فى كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس

(١) جمع جرو وهو الصغير من الحيوانات .

آية مؤداها : « اذا شئت ان تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك واعط الفقراء ثمنه » فباع من فوره متاعه وانفق ثمنه فى وجوه البر والاحسان وانخرط فى سلك الرهبنة .

وفى السنوات العشر التى قضاها بعيدا عن البشر لم يغل فى قران الشهوات الجسمانية ، بل استفاد بمعالجة نفسه بلسم التقشف.

***

وحدث يوما ان فكر كعادته فيما مضى من حياته بعيدا عن الله ، وعرض خطاياه الواحدة تلو الاخرى ليدرك شناعتها ، فتذكر انه راى منذ بضع سنين فى ملعب الاسكندرية ممثلة ساحرة الجمال تدعى « تاييس » كانت تمثل فى الالعاب ادوارا شتى ، ولم تكن تتحرج من رقص يثير فى النفس بحركاته اقوى الشهوات ، وبعرض نفس الرائى لاشنع الرغبات ، وتبدو فى مشاهد مخجلة ، مما الصقه الكافرون بالزهرة وليدا باسيفه ، فكانت تشعل نيران الشهوة فى جميع المشاهدين ، وكان يختلف اليها الشبان المدلهون والشيوخ الاغنياء المغرمون ، يعلقون أكاليل الزهر ببابها ، فكانت ترحب بهم وتنيلهم منها ما يشتهون ، فاضاعت بضياع نفسها نفوسا اخرى عديدة .

وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها ، فقد اضرمت نار الصبابة فى قلبه ، واشعلت لهيب الشوق فى نفسه ، فاقترب ذات مرة من بيتها لكنه وقف بالباب وصدته الجبانة واحتجزه التهيب الفطرى فى الشباب الغض « كان فى الخامسة عشرة من عمره » وكان تحرجه كذلك خشية ان يزجر لخلو ذات يده ، اذ كان ابواه يابيان عليه البذل الكثير ، ومن رحمة الله ان قيض له ذلك استنقاذا له من وزر كبير ، بيد أن بافنوس لم يحمده تعالى لانه كان فى حينها لا يستطيع ان يميز بين ما ينفعه وما يضره ، وكانت نزعاته باطلة .

***

اما وقد ركع بافنوس فى صومعته امام صورة ذلك الصليب المقدس المعلق عليه « فدية العالم » فقد بدا يحلم بتاييس التى كانت معصيته ، وقد فكر طويلا ، بحسب الطقوس الدينية ، فى قبح الملاذ الدنسة المروعة ، تلك اللذات التى اوحتها اليه هذه المراة فى ايام

الخبط والجهل . وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تاييس بجلاء تام ، فرآها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبت له حبائل الغواية ، فظهرت له أولا مثل « ليدا » راقدة فوق مضجع من حجر يمان ، ناكسة الراس ، مغرورقة العينين المملوءتين نورا ، باسمة ، ترتجف شفتاها وثدياها ، كزهرتين ، وزنداها كجدولين ، فضرب بافنوس صدره عندئذ وقال :

ادعوك ربى لتشهد على شعورى بشناعة خطيئتى !

ثم غيرت الصورة شيئا فشيئا ملامحها ، اذ زاد انتسام ثغرها فاقتر عن الم خفى ، وامتلات عيناها النجلاوان دموعا ونورا ، وجعل صدرها يعلو وينخفض بالتنهدات وهى تزفر زفيرا يشبه اول هبوب العاصفة ، فاضطرب بافنوس لهذا المنظر اضطرابا شديدا اثر فى صميم قلبه ، وخر ساجدا رافعا هذه الضراعة :

ــ انت يا من اشربت قلوبنا رحمة مثلما اشربت الرياض ندى الصباح ! أيها الاله العادل الرحيم ! تباركت وتعاليت ! انزع من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذى يؤدى الى الشهوة ، وأوزعنى الا احب مخلوقاتك الا فيك وحدك ، لانها تفنى جميعا وانت وحدك الحى القيوم ، فاذا كنت قد عنيت بهذه المراة فذلك لانها صنع يدك ، وان الملائكة انفسهم ليتوجهون اليها بعناية واهتمام ، الم تكن يا الهى نفحة من روحك ! ان عليها ان تضع حدا لا ترتكبه من الخطايا مع اهل البلاد والغرباء ، لقد انبعث فى قلبى شعور عطف زائد نحوها ، ان ذنوبها لفظيعة ، وان مجرد التفكير فيها يروعنى الى حد ان شعر راسى يقف رعبا ، سيبقى اشفاقى عليها عظيما كذنبها ، وكلما ازدادت طغيانا زدت حنانا ، انى أبكى حين افكر فى ان الزبانية سوف يعذبونها فى نار جهنم ، التى كلما خبت زادوها سعيرا .

وانه لكذلك اذ راى ابن آوى صغيرا مقعيا عند قدميه ، فادهشه ذلك كثيرا لان باب صومعته كان موصدا منذ الصباح ، ولاح على الحيوان انه قرأ ما جال بخاطر الكاهن ، فحرك ذنبه كالكلب ، فرسم بافنوس علامة الصليب فاختفى الحيوان ، وهنالك علم بأن الشيطان قد دخل حجرته للمرة الاولى ، فصلى صلاة قصيرة ثم عاد ففكر فى تاييس وقال :

— يجب أن انقذها بعون الله !

ثم نام ..

***

في صبيحة اليوم التالي ، بعد الصلاة ، زار القديس « بالمون » الذي كان يعيش في دار قريبة عيشة الزهد والرهبنة ، فالفاه هادئا مطمئنا ضاحكا مستبشرا ، يفلح حديقته كعادته ، وكان بالمون شيخا هرما له حديقة تنتابها الوحوش الضارية تلحس يديه ، ولم تقربه قط الشياطين ، فقال بالمون وهو مستند الى فأسه :

— حمدا لله يا أخي بافنوس !

فأجاب بافنوس :

— الحمد لله ، والسلام عليك يا أخي !

فرد عليه الراهب بالمون بقوله :

— وعليك السلام يا أخي بافنوس !

ثم مسح عرق جبينه بكمه ..

— أي أخي بالمون ، ليكن موضوع حديثنا حمد الاله الحي ، الذي وعد بأن يكون بين الذين يجتمعون باسمه ، هذا هو غرضي من المجيء لأحادثك عن خطة لتمجيد الرب .

— بارك الله في خطتك يا بافنوس مثلما بارك في خسي ! فهو في كل صباح يسبغ على نعماءه بسكب الندى على حديقتي ، وان رحمته لتدعوني أن أسبح بحمده على ما يمنحني من القثاء والقرع ، دعنا نضرع اليه أن يكلأنا برعايته وينزل على قلبينا السلام ! فليس ثم ما يخيف أكثر من المشاعر التي تتعب القلوب فلا يلبث المفتونون بها أن يكونوا كالسكارى يترنحون يمينا وشمالا وهم على وشك السقوط المزري في هوة الشقاء ، لقد تغمرنا هذه الانفعالات بفرح مفرط ، والذي ينهمك في هذه الغوايات يكون هزأة تضحك منه البهائم ضحكا يتردد عاليا في أجواز الفضاء ، ولكن قد تطرحنا فتن الروح والحواس في كآبة مضنية ، وهذه أشأم ألف مرة من الفرح ، أي أخي بافنوس ، لست الا خاطئا تعسا ، ولكني وجدت في أثناء حياتي الطويلة أن ما من عدو أعدى للراهب من الكآبة . أعني الكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتحجب نور الله ،

وما من شيء مثلها ينافي الراحة والسلام ، وان أعظم نصرة للشيطان أن ينفث الزيغ والنزعات السوداوية في قلب رجل متدين ، فلو أنه بعث لنا التجارب والغوايات في سياق الفرح والمسرة لما كان مخوفا نصف هذا الخوف ، وا أسفاه ! انه بارع في ايلامنا ، متفنن في تعذيبنا ، أو لم يظهر لأبينا « انطوان » طفلا أسود جميلا الى حد أن رؤيته استذرفت دموعه ؟ على أن أبانا نجا بمعونة الله من الوقوع في حبائل الشيطان ، وانني لأعرفه مدى الزمن الذي قضاه بيننا طروبا منشرح الصدر مع تلاميذه ولم يك قط كئيبا ، لكن الم تأت يا أخي لتتحدث عن خطة هيأتها في نفسك ؟ ان اطلاعك اياي عليها فضل منك متى كانت لتمجيده تعالى .

— أخي بالمون ، انني راغب حقيقة في تمجيد الله ، فاشدد أزري بمشورتك ، فأنت عالم مستنير لم يحجب الاثم قط نور فطنتك !

— يا أخي بافنوس ، انني لست جديرا بأن أحل شراك نعلك ! فان آثامي كرمال الصحراء لا تحصى ولا تعد ، غير اني بلغت من الكبر عتيا فلن ارفض أن أكون عونا لك بتجاربي .

— اذن سألقي اليك همومي وأحزاني يا أخي بالمون ، فاني ليحزنني التفكير في أن هناك بمدينة الاسكندرية غانية تدعى تاييس تعيش في الخطيئة وبلا على الناس ومذلة لهم .

يا أخي بافنوس ان هذا في الحقيقة لرجس محزن ، وان النساء اللاتي يحيين هذه الحياة بين الوثنيين لكثيرات ، فهل فكرت في علاج لهذا الداء ؟

— سأذهب يا أخي بالمون في طلب هذه المرأة بالاسكندرية ، وساهديها الى الحق بعون الله ، هذه هي خطتي ، فهل تقرني عليها يا أخي ؟

— لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس ، لكن أبانا انطوان اعتاد أن يقول : « حيثما كنت ، لا تتسرع بمغادرة مكانك الى مكان سواه » .

— أترى يا أخي بالمون خطأ ما في مسعاي الذي اعتزمت ؟

يا بافنوس الوديع ، أعاذني الله من اتهام مقاصدك يا أخي ! لكن أبانا انطوان قال أيضا : « كما أن السمك الذي يوضع فوق

ارض جافة تموت ، كذلك يفعل النساك الذين يغادرون صوامعهم ويختلطون بالعالم فيبتعدون عن طريق الخير » .

وبعد هذا القول نكت الشيخ بالمون الارض بمعوله ، وبدأ يحفر التربة حول شجرة تفاح مثقلة بثمارها ، وبينما كان يحفر نفرت وعلة متخطية سياج الحديقة عالقة بالاوراق ووقفت فى دهش بلا حراك ، مرتعدة الأيض ، ثم بلغت الشيخ الهرم بوثبتين وغطت رأسها البديع فى حجر صديقها ، فقال بالمون :

– اسبح بحمد الله فى غزالة الصحراء !

ثم مضى الى كوخه يتبعه الحيوان الرشيق فاحضر خبزا اسود اكلته الغزالة من راحته .

ولبث بافنوس شاخصا ببصره الى حجارة الطريق ، ثم قفل راجعا ببطء الى صومعته يفكر بعناية فيما سمع وقال ، وقد تنازعت ذهنه الافكار :

– لعمرى ان هذا الزاهد نافذ الرأى بصير ، وانه لحصيف حذور ، فقد ارتاب فى صواب فكرتى ، غير انه من القسوة ان اتخلى بعد الآن عن تاييس للشياطين الذين يحظون بها ، اللهم اهدنى سواء السبيل وهيىء لى من أمرى رشدا .

وبينما كان فى طريقه رأى كيروانا واقعا فى شباك نصبها صياد على الرمال ، وادرك ان الطائر أنثى ، لان الذكر اقبل محلقا حول الشبكة وقطع عيونها واحدة بعد واحدة بمنقاره الى ان احدث فتحة كافية لخروج رفيقته ونجاتها ، فتأمل رجل الله هذا المنظر ، ولكونه يستطيع ، بفضل ايمانه وتقواه ، قراءة خفايا الاشياء ، تمثل له ان الطائر الاسير تاييس ، واقعة فى حبائل الرذائل ، وعلى ذلك – طبقا لمثل الكيروان الذى قطع عيون الشبك بمنقاره – يجب ان يقطع بالاقوال المؤثرة البليغة القيود الخفية التى تربط تاييس بالكبائر ، ولهذا حمد الله وثبت على تصميمه الاول ، ولكنه عندما رأى الكيروان واقعا هو نفسه ، منشبا أظفاره فى الشبك الذى قطعه ، عاد ثانية الى تردده وارتيابه .

فبات مسهدا ارقا لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند الفجر رؤيا ، ظهرت له تاييس مرة أخرى ، لم تبد على وجهها اية

علامة للاهواء الضالة او الملاذ التى يمازجها الاثم ، ولا كانت مرتدية كعادتها شفوفها المهلهلة ، بل كانت فى بردة تغطيها كلها وتحجب بعض وجهها بحيث لم يستطع الراهب ان يرى سوى عينين تفيضان بالدموع السخينة البيضاء .

بدا يبكى لرؤية هذا المشهد ويعول اعوالا ، وجرى فى ظنه ان هذا الحلم وحى من عند الله ، فطلق التردد ، ونهض لساعته وتناول عصا معقدة ، هى رمز العقيدة المسيحية ، وغادر صومعته واغلق الباب بعناية حتى لا تدنس الحيوانات التى تعيش فوق الرمال او الطيور التى تحلق فى الفضاء ، الكتاب المقدس الذى حفظه فى رأس مضجعه ! ودعا الشماس فلافيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين ، واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر ، وسار والنيل قاصدا ان يمشى محاذيا الشاطىء الليبى حتى المدينة التى اسسها اسكندر المقدونى ، وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهينا بالتعب والجوع والعطش ، وكانت الشمس تحت الافق حين رأى النهر الرهيب زاخر الموج مخضوبا بالدماء بين صخور الذهب والنيران ، سار على الشاطىء مستعطيا بالخبز لوجه الله عند ابواب الاكواخ المنفردة ، متلقيا الانتهار بابتهاج ، غير خائف من اللصوص ولا الوحوش الضارية ، ولكنه توخى ان يتنكب القرى والامصار التى فى طريقه ، فقد كان يخشى ان يلقى الاولاد يلعبون امام منازل آبائهم بالكعاب ، او يرى الصبايا فى جلابيب زرقاء ، يملان جرارهن مبتسمات ، فكل هذه اشياء خطرة على الناسك تركبه الفرد ! بل كان يتهيب احيانا ان يقرأ فى الكتاب المقدس ان « معلم اللاهوت » (١) ذهب من مدينة الى مدينة وتعشى مع تلاميذه ! فالفضائل التى يطرزها الرهبان بعناية على نسيج ايمانهم ، سريعة التلف بقدر ما هى بديعة ، فان نسمة من نسمات الحياة العادية قد تغشى الوانها الزاهية ، ولهذا امتنع بافنوس عن دخول المدن خشية افتتان يصيب القلب ، او جود يلم بالنفس من جراء مرأى البشر .

فانطلق يضرب فى الطرق الموحشة ، وكلما امسى فداعب النسيم

---

(١) هو السيد المسيح عليه السلام .

شجر التمر الهندي ، ارتجف فاسدل غطاء راسه على عينيه حتى لا يشاهد جمال الكائنات !

وبعد مسير ستة ايام وصل الى مكان يدعى « سيلسيليه » حيث يجرى النهر فى واد ضيق تحده من جانبيه جبال الجرانيت ، هناك نحت المصريون أوثانهم ، ايام كانوا يعبدون الابالسة ، فوجد بافنوس راسا هائلا لابى هول لايزال قائما بين الصخور ، فخوفا من ان يكون ابليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية ، رسم علامة الصليب وفاه باسم يسوع ، فطار للحال خفاش من احدى اذنى الصنم ، فعلم بافنوس انه قد طرد روح الشر التى سكنت التمثال عدة اجيال ! فازدادت حماسته ورفع حجرا ضخما قذفه فى وجه التمثال ، فاستبان اذ ذاك فى تقاطيعه كآبة حركت فى نفس بافنوس عامل الحنان والشفقة ، والواقع ان صورة الحزن البادية على هذا الوجه الحجرى كانت كفيلة بان تؤثر فى اقسى الناس قلوبا واغلظهم اكبادا واشدهم جمودا .

من اجل هذا خاطب بافنوس ابا الهول بقوله :

ـ ايها الوحشى ! اتبع مثال الجياد والمعز الادمية التى رآها ابونا انطوان فى الصحراء ، واعترف بالوهية يسوع ، لكيما اباركك باسم الآب والابن والروح القدس !

ولما فاه بذلك سطعت عينا ابى الهول بضوء وردى ، وارتعشت جفون الاسد الغليظة ، وباحت الشفتان الصوانيتان بتاوه ـ كصدى صوت انسان ـ باسم يسوع المسيح ... وعندها مد بافنوس يده اليمنى وبارك ابا هول سيلسيليه !

***

استانف سفره بعد ذلك ، واتسع الوادى امامه فرأى اطلال مدينة عظيمة لا تزال المعابد باقية فيها ، تسندها الاصنام بدل العمد ، وقد القت هذه الاصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس امتقع لها واضطرب ! وهكذا سار سبعة عشر يوما ، كان غذاؤه الوحيد فيها بعض الاعشاب والثمار ياكلها فجة غير ناضجة ، وكان يقضى ليله فى خرائب القصور مع قطط برية وجرذان فرعونية ، وخلائق لها صدور انثوية واعطاف مائية كأنها عرائس بحرية ، لكن

بافنوس ادرك انها خرجت اليه من الجحيم فاقصاها برسم علامة الصليب على وجهه ! !

وفى اليوم الثامن عشر رأى كوخا حقيرا بعيدا عن القرى مصنوعا من سعف النخيل ، مطمورا الى نصفه فى الرمال التى سفتها رياح البادية ، فجاءه آملا ان يجده ماهولا ببعض المتنسكين الصالحين ، ولم يكن له باب ، فراى فيه جرة وكوم بصل وفرشا من الهشيم فقال فى نفسه :

ـ هذا متاع ناسك ، والزاهدون لا يبعدون كثيرا عن اكواخهم ، فلا البث ان القى الرجل وارى ان اهب له قبلة السلام مقتديا بالقديس المتنسك « انطوان » الذى عانق « بولس الزاهد » ثلاث مرات وهو مار ! ! وسوف نتكلم فى الابديات ، وربما انزل الله علينا خبزا بواسطة غراب فيتفضل بدعوتى لتناول شيء منه !

ثم دار حول الكوخ معللا نفسه بهذا الامر باحثا عن الناسك ، ولم يسر الا قليلا حتى رأى رجلا متربعا على ضفة النيل ، وكان الرجل عاريا ، وشعر راسه ناصع البياض كلحيته ، وكان لون جسده شديد الحمرة كلون الآجر ، فلم يشك بافنوس فى انه هو الناسك ، وحياه بتحية الرهبان المعتادة عند اللقيا :

ـ السلام لك يا اخى ! امتعك الله بلذات النعيم المقيم !

فلم يجب الرجل ، ولبث بلا حراك كانه لم يسمع ، فظن بافنوس ان سكوته ناشيء عن حالة الانجذاب الذى اعتاده القديسون ، فركع بجانب الرجل المجهول ، مشبك الانامل ، وظل هكذا يصلى حتى الغروب ، ولما راى ان رفيقه لم يحرك ساكنا قال :

ـ اذا كنت قد فرغت يا ابت من حالة التجلى التى اوالك فيها ، فباركنى باسم سيدنا المسيح !

فاجابه الرجل دون ان يلتفت اليه :

ـ ايها الغريب ! لا علم لى بما تعنيه ، ولا اعرف هذا السيد المسيح !

فصاح بافنوس :

ـ يا سبحان الله ! اتجهل من انبات به الانبياء ، واعترفت باسمه الرسل والشهداء ، وعبده قيصر نفسه ! ومنذ وقت قصير

انطقت ابا الهول بتمجيده ، افيمكن انك لا تعرفه ؟

— نعم يا صاحبي هذا ممكن ! وقد يكون يقينا اذا كان فى الدنيا يقين .

فدهش بافنوس ورثى لشدة جهل هذا الرجل وقال له :

— اذا لم تكن تعرف السيد المسيح فمظاهر تقواك لا تجديك فتيلا ، ولن تنال الحياة الابدية .

فاجابه الشيخ الهرم :

— عبثا يامل المرء ، سواء سعى او لم يسع ! وسيان عندى الحياة والموت !

— وا عجبا ! اترغب عن الحياة الخالدة ؟ الست تسكن صومعة فى هذا القفر مقتديا بالزاهدين ؟

— فى الظاهر !

— الا تعيش عاريا محروما كل شىء ؟

— فى الظاهر !

— الست تتغذى بالجذور ؟ الست متعلقا باهداب العفة ؟

— فى الظاهر !

— او لم تنبذ لذات العالم ؟

— الحق انى زهدت فيها لانى رايتها شغل الناس الشاغل !

— اذن انت مثلى فى الزهد والتقشف والطهر ، ولكنك لست مثلى فى محبة الله ، وطلب سعادة السماء ، فلماذا تتمسك بالفضيلة اذا لم تكن تؤمن بالمسيح ؟ لماذا تحرم نفسك متاع الدنيا اذا لم تكن تطمع فى نعيم الآخرة ؟

— ايها القريب ! انى لا احرم نفسى شيئا ، ويسرنى انى اهتديت الى عيشة راضية ، وان كانت الحياة خلوا من الطيب والردىء جميعا ، والحق ان الحياة ليس فيها شىء مما يقال له شرف وعار ، وعدل وظلم ، ولذة والم ، وحسن وسوء ، ولكن الناس خصوا هذه الاشياء باوصافها كما يعطى الملح للطعام مذاقا خاصا .

— ففى رايك اذن ان ليس ثمة يقين ؟ انك تنكر الحقيقة التى نشدها الوثنيون انفسهم ، انك غارق فى جهالتك كما يغرق الكلب المضنى من التعب فى الوحل !

— ايها القريب ! لا فائدة من سب الكلاب والحكماء ! انا لا ندرى ما هية الكلاب ، ونجهل ما هية انفسنا ، ولسنا ندرى شيئا ...

— اراك الى جماعة اللا ادريين تنتسب ؟ انت اذن احد اولئك التائهين المعتوهين ، الذين ينكرون الحركة والسكون معا ، ولا يميزون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل الحالك ؟

— اجل انى « لا ادرى » يا صاحبى ، وانتسب الى طائفة ، اذا كانت فى رايك مدعاة للسخرية ، فهى فى رايى جديرة بالاعتبار ، لان الاشياء نفسها لها مظاهر عديدة ، فاهرام منفيس تبدو فى مطلع الفجر مخاريط من ضياء وردى ، لكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات حالكة السواد فى السماء المتقدة كشعلة من نار ، فمن ذا الذى يستطيع ان يسبر غورها ويدرك كنهها ؟ انت تعزونى انكار الظواهر ، والظواهر هى وحدها الحقائق التى اسلم بها ، تبدو لى الشمس منيرة ، ولكن طبيعتها خافية على ، وارى النيران تشتعل لكنى لا اعرف كيف ولم ، انك عاجز عن ادراك فكرى ، ولكن هذا لا يهمنى .

— اسالك ثانية لماذا تعيش مكتفيا بالبلح والبصل فى البادية ؟ لماذا تقاسى شظف العيش والحرمان ؟ انى احمل مثل هذه الشدائد ، والقى ما تلقى ، ولكنى افعل هذا ارضاء لله تعالى لكيما استاهل فى الوحدة السعادة الابدية ! فمن المعقول ان يتعذب المرء لقاء اجر كبير ، ولكن من الجنون ان يعانى الانسان بمحض ارادته مشقات لا فائدة منها ، فلو لم اكن مؤمنا — غفرانك لهذا التجديف ايها النور الذى لم يولد — فلو لم اكن مؤمنا بحقيقة تعاليم الله بلسان انبيائه وبينة ابنه ، واعمال رسله ، واحكام المجامع وشهادة الشهداء المختومة بدمائهم ، ولو لم اعلم ان تعذيب الجسد واجب لتطهير النفس ، او كنت مثلك اجهل اسرار الدين ، لعدت لوا الى العالم وسعيت لاحراز الغنى لاعيش فى ترف ورفاهية كالسعداء فيه ، ثم اصيح فى اللذات قائلا : هلم يا بناتى ! هلم يا خوادمى ! تعالين جميعا واسكبن خموركن ورحيق غرامكن وعطوركن ، ولكنك ايها الشيخ الافون تمنع نفسك كل الطيبات

فتخسر دون ان تكسب شيئا ، تعطى ولا امل لك في ان تسترد شيئا مما اعطيت ، وتقلد بسخف اعمال نساكنا العجيبة كقرد وضع شبح على الحائط معتقدا انه يحاكي امهر الراسمين ، فما اغبى الناس ما حجتك ؟

قال بافنوس هذا بحدة وعنف ، لكن الشيخ لبث هادئا ، واجاب بصوت رقيق :

ــ وماذا يهمك من حجة كلب راقد في الوحل ، وقرد مفسد ؟

ولما لم يكن لبافنوس سوى غرض واحد ، هو تمجيد الله ، فقد ذهب غضبه ، واعتذر بخشوع قائلا :

ــ اعف عني يا اخي الشيخ ! ان غضبتي للحق حملتني على تجاوز حدود الادب ، ويشهد الله اني ما مقت شخصك ولكني استنكرت خطيئتك ، ولشد ما يؤلمني ان اراك تتسكع في ظلمات الضلالة مع اني أحبك في المسيح ،ورغبتي في خلاصك تشغل بالي ، تكلم ! ادل الي ببراهينك ، اني مشوق الى معرفتها لافندها .

فاجابه السيد بهدوء :

ــ ان ميلي الى الكلام كرغبتي في السكوت ، على اني سادلي اليك بحججي دون ان اسالك حججك ، فانك لن تستميلني باي حال من الاحوال ، انا لا ابالي بسعادتك او شقائك ، وسواء لدي السبل التي تتجه اليها اراؤك ، وكيف احبك او اكرهك ، والميل والنفور كلاهما لا يليق بالحكيم ؟

اما وقد سالتني فاعلم ان اسمي « تيموكليس » ، وانني قد ولدت في « قوص » من ابوين اثريا من الصناعة ، وكانت صناعة ابي تسليح السفن ، وكان ذكاؤه يضارع كثيرا ذكاء الاسكندر الملقب بالاكبر ، وكان لي اخوان اتخذا صناعة ابينا ، اما انا فقد احترفت الحكمة ، واكره والدي اخي الكبير على الزواج بامراة كورية تدعى « تيماسا » ، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها ، ثم ان تيماسا هذه اغرت شقيقنا الصغير على عشق اثيم . ولم تلبث هذه العاطفة ان تحولت الى جنة مستعرة وولع شديد ، على ان الكورية ابغضتهما كليهما وهامت بزمار كانت تخلو به ليلا في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتاد لبسه في المادب ، فلما وجده اخواي

اقسما على قتل صاحبه ، وفي اليوم التالي قتلا الزمار ضربا بالسياط ، ولم تشفع له دموعه ولا توسلاته ، ففقدت زوج اخي رشدها من القنوط ، واصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحوش يهيمون على شواطيء قوص ، وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب ، يعلو الزبد اشداقهم ، وتحدق في الارض ابصارهم ، والاطفال يضجون من حولهم ويرمونهم بالمحار ، الى ان ماتوا ودفنتهم ابي بيديه ، ولم يلبث ان ابت معدته تناول الطعام فمات جوعا ، مع انه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يشتهي في اسواق آسيا من لحم وفاكهة ، وكان يتميز غيظا من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته في الاسفار ، فزرت ايطاليا وبلاد اليونان وافريقيا ، فلم الق قط عاقلا ولا سعيدا ، درست الفلسفة في اثينا والاسكندرية حتى اصابتني جلبة الحوار بالدوار ، ولما وصلت اخيرا الى الهند ، رايت على شاطيء نهر الكانج رجلا عاريا ، متربعا في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاما ، وقد علقت بجسمه الضامر النباتات المتسلقة ، وعششت الطيور في شعره ، وهو باق حيا ، ذكرت لرؤيته تيماسا والزمار واخوي وابي ، وادركت ان هذا الهندي حكيم ، وقلت لنفسي : « الناس يتألمون لانهم محرومون ما يظنونه خيرا ، واذا نالوه خشوا ان يفقدوه ، او لانهم يعانون ما يظنونه شرا ، فاذا بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور » ، هذا هو السبب الذي حال دون اختياري شيئا نافعا ، وحملني على الزهد في طيبات هذه الدنيا ، وجعلني اعيش في وحدة وسكون اقتداء بالهندي .

وكان بافنوس يصغي بانتباه لحكاية الشيخ ، فاجاب :

ــ حقا يا تيموكليس القوصي ، ان كل ما قلته غير بعيد عن الصواب ، فمن الحكمة ازدراء متاع هذه الدنيا ، ولكن ازدراء النعيم الابدي ، وتعريض النفس بذلك لغضب الله ، لمن الجنون ، اني ارثي لجهلك يا تيموكليس ، وساهديك الى الحق ، واقودك الى محجة الصواب ، فانك اذا علمت ان الله موجود في ثلاثة اقانيم ، اتبعت هذا الاله كما يطيع الابن اباه . . .

فقاطعه تيموكليس بقوله :

ــ كفى ايها القريب ! كفى شرحا وتبيانا لتعاليمك ، لا تحاول ان

تكرهني على قبول آرائك ، فكل جدل عقيم ، ورأيي الا يكون لي رأي ، اي أعيش خلوا من الهموم ما دمت لا أفاضل بين الأشياء ، سر في طريقك اذن ولا تعالج تحويلي عن الجمود المحمود الذي يغمرني كأني في حمام منعش بعد مشاغل أيامي المرهقة .

وكان بافنوس راسخ القدم في أصول الايمان ، ولشدة اختباره لقلوب البشر عرف أن نيموكليس الشيخ قد عدته رحمة الله ، وان يوم خلاص تلك النفس الخاسرة لم يحن بعد ، فلم يجب خشية أن تنقلب التبصرة تهلكة ، فقد يحدث أن مجادلة الكافرين تزيدهم تمردا وعصيانا بدلا من أن تردهم مؤمنين ، ولهذا ينبغي لمن هم على الحق أن يذيعوه بفطنة وحذر .

فقال : اذن فالوداع يا نيموكليس التعس !

ثم تنهد تنهدا عميقا واستأنف سراه تحت ستر الغسق .

رأى في الصباح سربا من « أبي قردان » واقفا على ساق واحدة لايتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظل أعناقه الوردية ، وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الفضة الرمادية على الشاطيء الى مدى بعيد ، وكانت الكراكي تطير على شكل مثلث في السماء الصافية الأديم ، ومن بين عيدان القصب يتردد نواح مالك الحزين ، والى آخر ماتستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر في لجته الخضراء وفوقها الأشرعة البيضاء كأنها أجنحة الطير ، وهنا وهناك تنهض على الشاطيء بيوت بيضاء يغشاها ضباب خفيف ، وفي ظلال الجزر المثقلة بالنخيل والأزهار والثمار يدوي صياح أسراب البط والأوز والنحام والشرشير ، والى اليسار يمتد الوادي الخصيب حتى الصحراء تتمايل حقوله وجناته طربا ، والشمس تصبغ السنابل بالذهب ، وقد فاح عرق التربة المخصبة وعبق شذاها .

ولما رأى بافنوس ، في روعة هذا المنظر ، برهان وجود ربه ، خر ساجدا يقول :

ـ تبارك الله الذي وفقني في سفري ! سبحانك أنت الذي أنزل نداه على أشجار التين ، انزل غفرانك يا الهي على روح تاييس التي برأتها ، وفي أحسن صورة صورتها ، لا تقل عن زهر الخمائل وأشجار البساتين ! دعها يا الهي تزهر بعنايتي شجيرة ورد

بلسمية ، في بيت مقدسك السماوي !

وكان كلما رأى شجرة مزهرة أو طائرا غردا ، تذكر في تاييس ، وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى ، بين البقاع الخصبة الآهلة ، حتى وصل بعد أيام الى الاسكندرية ، التي لقبها الاغريق بالجميلة والذهبية ، وكان الفجر قد تبلج منذ ساعة فلاحت له المدينة الرحبة المطيبة من مرتفع ، تتلألأ قبابها في ضباب الصباح الوردي ، توقف وضم ذراعيه الى صدره ، وقال :

ـ اذن ، هذا هو المقر البديع الذي تمخض بي في الخطيئة ! .. وهذا هو الهواء الذي منه استنشقت العطور السامة ! وهذا بحر الشهوات الذي فيه سمعت أغاني بناته ! هوذا مهدي الجسدي وموطني العالمي ! وانه في نظر الناس لمهد الورد والزهر ، ووطن المجد والفخر ، ليس عجيبا أيتها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأم رءوم ، وقد نشأت في أحضانك ذات الرواء وشببت في ربوعك زينة البهاء ، بيد أن الزاهد يستخف بالطبيعة ، والصوفي يزدري الظواهر ، والمسيحي ينظر الى وطنه الدنيوي كأنه منفى ، والراهب يعرض عن الدنيا ! أيتها الاسكندرية ! لقد حولت قلبي عنك ، فأنا أكرهك وأمقتك لغناك ، لعلمك ، للذاتك ، لجمالك ! لعنة الله عليك يا معبد الشياطين ، يامضجع الفجار ! يامنبر الاريوسيين الموبوء ، عليك اللعنة ! وأنت يا ابن السماء ، يا من هدى أبانا الناسك « القديس انطوان » لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنية هذا ليثبت ايمان المهتدين ، ويشد أزر المستشهدين ، يا ملك الرب الجميل ، أيها الطفل غير المنظور ، يا نفحة الله الأولى ، حلق أمام عيني وعطر برفرفة جناحيك الهواء الفاسد الذي سأستنشقه عما قريب مع مردة الشر وأبالسة الظلام .

قال ذلك واستمر في طريقه ، ودخل المدينة « من باب الشمس » الحجري الشامخ ، وكان على تساميه وجلاله يتربع في ظله الفقراء البائسون ، يستجدون المارة وهم يتأوهون أو يبيعونهم التين والليمون .

وكانت هناك عجوز جاثية في أطمار بالية ، فأمسكت بمسوح الراهب وقبلتها وقالت :

— أى رجل الرب ! باركنى ليباركنى الرب ! لقد ذقت من العيش امره ، وكابدت آلاما كثيرة فى هذه الدنيا ، واريد ان احظى بالمسرات فى الآخرة ؛ انك آت من عند الله ايها القديس ، لذلك اعد تراب قدميك اغلى من التبر .

فقال بافنوس :

الحمد لله !

ورسم بيده علامة الفداء على راس العجوز ، وسار فى طريقه ، على انه لم يكد يبتعد قليلا حتى اعترضته شرذمة من الاطفال جروا وراءه مستهزئين ، ورجموه بالطوب وهم يصيحون :

— يا للراهب الخبيث ! انه اسود من القرد الاسحم ، واقبح التحاء من تيس ! يا له من غبى مستميت ! لماذا لم ينصبوه لعينا (١) فى حقل لتخويف العصافير ! لكن لا ! ان وضعه هناك يجلب البرد على زهر اللوز ! انه يجلب النحس والشؤم ! اصلبوا الراهب ! اصلبوه !

وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ، فتمتم بافنوس :

— اللهم بارك فى هؤلاء الاطفال المساكين !

واستمر فى طريقه مرددا ما يجول بخاطره :

— لقد احترمتنى تلك العجوز ، وامتهننى اولئك الصبيان ، وكذا الشيء الواحد يقدر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم عرضة للخطأ فى احكامهم ، فيجب التسليم بان الشيخ تيموكليس مع انه كافر ، لم يكن خلوا من الادراك ، اذ انه يعرف انه محروم النور على الرغم من كونه اعمى ، ان كل شيء فى هذه الدنيا سراب خادع ، وظل زائل ، ولون حائل ، والثبات لله وحده .

***

اجتاز بافنوس المدينة سريع الخطا ، وتذكر بعد غيبته عشر سنوات كل حجر فيها ، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بمعصية ، فطفق يطأ حجارة الطريق حافيا بعنف ، وكان يبتهج كلما تركت قدماه المرقتان اثر دمائهما عليها .

ثم سار عن يمين اروقة معبد السرابيس الفخمة ، فى طريق

(١) اللعين ماينصب فى الزرع بهيئة رجل لطرد الطيور والوحوش

محفوف بالقصور المنيفة التى كانت كانها تنطف عطرا ،وهناك أشجار الصنوبر والاسفندان شامخة برؤوسها فوق الطنوف الحمراء وقواعد التماثيل المذهبة ، ورأى من خلال الابواب تماثيل من النحاس فى اروقة من المرمر ، وخيوطا من الماء النافر ترقص بين اغصان الشجر ، ولم يك ثمة صوت يكدر صفو سكون هذه الوحدة الزائفة ، سوى انغام ناى بعيدة ، فوقف الراهب أمام منزل صغير بديع التقسيم ، قائم على اعمدة كانها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان بتماثيل نصفية من البرونز لاشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافنوس منهم افلاطون وسقراط وارسطو وابيقور وزينون .

قرع الباب ولبث ينتظر وهو يفكر فى « ان من العبث ان يمجد المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين ، فترهاتهم باطلة ، وارواحهم فى نار الجحيم تلظى ، وافلاطون الشهير نفسه الذى ملأ الارض بدوي فصاحته ، يجادل الآن الزبانية فى جهنم » ! ! !

ففتح الباب زنجى ، ولما رأى رجلا حافى القدمين يطأ فيفاء العتبة قال بخشونة :

— اذهب ايها الراهب الهزاة ، واستجد فى غير هذا المكان ، ولا تنتظر حتى اطردك بالنبوت .

فاجابه كاهن انصينا :

— لا اسالك شيئا الا ان تاخذنى الى سيدك نسياس .

فاجابه العبد وهو يمعن فى حنقه :

— حاشا لسيدى ان يلقى الكلاب امثالك .

فاجابه بافنوس :

— تفضل يابنى وافعل ما طلبته اليك ، اخبر مولاك انى راغب فى رؤيته .

فصاح البواب الساخط متهيجا :

— اخرج من هنا ايها المستجدى اللحاح !

ولكزه العبد بعصاه ، فتلقى الضربة على وجهه ساكتا ساكنا ، وكرد قوله بلطف :

— ارجو يا بنى ان تؤدى رسالتى الى سيدك .

فارتجف البواب ، وقد اوجس خيفة مما رأى ، وتمتم قائلا :

– ترى من يكون هذا الرجل الذى لا يخشى الألم ؟
وانطلق ليخبر مولاه .

كان نسياس خارجا من الحمام ، والجواري الجميلات يمسحن جسده بأدوات التدليك ، وكان رجلا رشيقا بشوشا ، يجمع محياه بين حلاوة الدعابة ومرارة التهكم ، فلما أبصر الراهب ، تقدم اليه مفتوح الذراعين هاتفا :

– هذا أنت يا بافنوس ! رفيقى فى طلب العلم ، صديقى ، اخى ! آه ! لقد عرفتك مع انك – والحق يقال – قادم فى صورة اشبه بالوحوش منها بالبشر ، اتذكر ايام كنا ندرس معا النحو والبيان والفلسفة ! كنت فى ذلك الحين ذا مزاج فظ وحشى ، ولكننى احببتك لاخلاصك الذى لا تشوبه شائبة ، وكنا اعتدنا أن نقول عنك انك تنظر الى الكائنات بعينى جواد غضبان نفور ، ولم يكن جماحك ونفورك بالشىء المدهش ، فلم تكن على جانب كبير من رقة القدماء ، ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد ؛ لم تكن تضن بمالك ولا تبخل بحياتك ، وكنت على خلق شاذ وعبقرية حببتك الى وجعلتنى اميل اليك كل الميل ، اهلا بك أيها العزيز بافنوس ، ومرحبا بك بعد فراق عشر سنين ! لقد غادرت الصحراء وزهدت فى خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود الى حياتك الاولى . ان اليوم ليوم ميمون ؟

ثم التفت الى النساء وقال :

– يا كروبيل ويامرتال ضمخا بالطيب قدمى ضيفى العزيز ويديه ولحيته .

فابتسمتا واقبلتا عليه بابريق وقنانى ومرآة معدنية ، ولكن بافنوس أوقفهما باشارة الامر ، ثم غض من بصره كى لايراهما ، لانهما كانتا عاريتين ، وجاءه نسياس بالوسائد ، وقدم اليه طعاما وشرابا مختلفى الالوان ، فرفضهما بافنوس كلها بازدراء ، وقال :

– اعلم يا نسياس انى لم اهجر ما سميته خطأ بالخرافات المسيحية ، والتى هى بلا ريب حقيقة الحقائق : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان ، فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ... » (1)

(1) من الانجيل المقدس (يوحنا الاصحاح الاول والعدد الاول)

فاجابه نسياس وهو يرتدى جلبابا معطرا :

– انظر ياعزيزى بافنوس انك تدهشنى بذكر أقوال مشوشة فارغة ، لا معنى لها ولا طعم ! انسيت اننى انا نفسى فيلسوف الى حد ما ؟ أيخيل اليك انك تستطيع اقناعى ببعض خرق مزقت من ثوب اميليوس الارجوانى ، فى حين ان اميليوس وبورفير وافلاطون فى اوج مجدهم ما استطاعوا اقناعى ؟ ! ان المذاهب التى انشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسلية طفولة الناس الخالدة ، ويجب ان نلهو بها كما نلهو بحكايات الحمار ، ودن التيفة، ومائرن الافيوسى ، او اية اسطورة اخرى من الاساطير الميلزية .

ثم اخذ بذراع ضيفه وقاده الى بهو فيه آلاف من اوراق البردي مركومة فى سلال وقال :

– هذه مكتبتى ، وهى تحوى شيئا يسيرا من الآراء التى ابتدعها الفلاسفة لتفسير الغاز هذا الكون ؛ ان مكتبة الاسكندرية بكل غناها لا تحويها كلها ، وا اسفاه ! ليست هذه سوى احلام قوم مرضى !

وارغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العاج ، وجلس هو ايضا ، فالقى بافنوس على الكتب نظرة المغتم ، وقال :

– يجب ان تحرق كلها !

فاجابه نسياس :

– انها تكون خسارة يا ضيفى الكريم ! فاحلام المرضى تكون فى بعض الاحيان مسلية ، فضلا عن انه اذا اعدمت كل احلام الناس وتخيلاتهم فقدت الارض زينة اشكالها وبهجة الوانها ، وكان نصيبنا جميعا الرقاد فى خمول محزن .

لكن بافنوس استطرد قائلا :

– من المحقق أن تعاليم الوثنيين ليست الا ترهات فارغة ، لكن الله ، وهو الحق بآيات بينات ، قد تجسد وعاش بيننا .

فاجاب نسياس :

– ما افخم كلامك عن تجسده ايها العزيز ! لعمرى ان الها يفكر ويعمل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعة ، كما كان شأن عوليس العتيق على البحر الاخضر – ان هو الا انسان عريق ، وكيف يخطر ببالك

أن نؤمن بجوبيتر هذا الجديد ، فى حين أن صبية أثينا ، فى عصر بركليس ، فرغوا من الايمان بسميه القديم ؟ ولكن دعنا من هذا ، انك لم تأت على ما أظن ، للجدل فى الاقانيم الثلاثة ، فخبرنى عما أستطيع القيام به لك أيها الرفيق العزيز .

فأجابه كاهن أنصينا :

ـ أعرنى حلة معطرة ، كتلك التى تلبسها ، ومن على بنعال مذهبة وقارورة ملئت زيتا لأطيب به لحيتى وشعرى ، وزد على ذلك سفطا فيه ألف درهم ، هذا ما أتيتك فى طلبه يا نسياس حبا فى الله وإكراما لعهد صداقتنا القديم .

فدعا نسياس بجاريتيه كرويل ومرتال ، فأحضرتا أفخر حلة له ، وكانت موشاة على الطراز الأسيوى بصور الزهر والحيوان ، فأمسكتها المرأتان ونشرتاها بحذق بحيث بدت ألوانها البراقة ، وأمهلتاه حتى يخلع مسوحه التى تغطيه من رأسه الى قدميه ، فأعلن الراهب أنه يفضل تمزيق لحمه إربا إربا على أن يخلع مسوحه ، فسترتا المسوح بتلك الحلة ، ومع أن كرويل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق ، الا أنه كانت لهما على الرجال دالة الحسن ، فطفقتا تضحكان من الهيئة الغريبة التى أصبح الراهب فيها ، ودعته كرويل مولاها العزيز ، بينما كانت واقفة أمامه بالمرآة ، وشدت مرتال لحيته ، غير أن بافنوس كان يصلى لله ، ويغض عنها بصره ، ولما احتذى النعال الذهبية وشد السفط الى حزامه قال لنسياس الذى كان ينظر اليه باسما :

ـ أى نسياس ! يجب ألا تكون الأشياء التى تراها معرة فى نظرك ، كن واثقا أننى سأحسن استخدام هذا الثوب ، وهذا السفط ، وهذه النعال ، وأعمل بها عملا صالحا .

فأجاب نسياس :

ـ لست أظن شرا ولا سوءا ، لاعتقادى أن الناس متساوون فى العجز عن فعل الشر والخير ، فالخير والشر لا يتعدان حد الظن والتقدير ، وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف ، أننى أحبذ الآراء السائدة فى الاسكندرية فى عيدنا هذا ، وذلك هو سبب اعتبار الناس اياى رجلا شريفا أمينا ، فاذهب

يا صاحبى وتمتع بما أخذت كيف شئت .

لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على حقيقة الأمر ، فقال :

ـ أتعرف تاييس ، تلك التى تمثل فى المسرح ؟

ـ امرأة جميلة فتانة ! وقد كانت يوما ما عزيزة جدا على ، حتى انى بعت فى سبيل هواها طاحونة وحقلين كانا يزرعان حنطة ! وأرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مراثى سقيمة ! حقا ان الجمال هو أعظم قوة فى العالم ، فانه اذا قدر لأحدنا أن يظفر به الى الأبد ، أعار « الخالق » و « الكلمة » و « الخلود » أقل ما يمكن من المبالاة ! على أنى أعجب يا بافنوس الصالح لمجيئك من أعماق طيبة لتتحدث عن تاييس .

ثم تنهد ، فرشقه بافنوس بنظرة الذعر والخوف ، لأنه لم يخطر بباله قط أن رجلا يمكنه أن يقترف مثل هذا الاثم بمثل ذلك الهدوء ، وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعته ، لكن الأرض لم تنشق ، وبقى الاسكندرى الصامت معتمدا رأسه يبتسم بمرارة لتذكارات شبابه المدبر ، فوقف الراهب وأجاب بصوت جهورى :

ـ اعلم يا نسياس انى أروم بمعونة الله انقاذ تاييس من حضيض الشهوات الأرضية السافلة ، وأشراب قلبها حب المسيح لتكون عروسه ، واذا لم يفارقنى الروح القدس ، فستغادر تاييس هذه المدينة اليوم لتدخل الدير .

فأجاب نسياس :

ـ احذر أن تغضب « الزهرة » انها الهة قادرة ، ان أنت حرمتها أبدع عبادها ، أوقرت صدرها عليك !

فقال بافنوس :

ـ ان الله سيقينى ويدفع عنى السوء ، وعسى ربى أن ينير قلبك يا نسياس ، ويرفعك من الهوة التى تتردى فيها .

وخرج ، فتبعه نسياس حتى أدركه بالباب ووضع يده على كتفه وهمس فى أذنه مكررا قوله :

ـ حذار أن تغضب الزهرة ، فانتقامها شديد !

على أن بافنوس لم يعبأ بهذا النذير وخرج طاويا عنه كشحه ،

فلم تبعث فيه اقوال تـيـاس الا الاشمئزاز والاحتقار ، وقد احفظه جدا ، اذ علم ان صديقه نال حظوة عند تاييس ، وخيل اليه ان ارتكاب الخطيئة مع هذه المرأة اشنع واشد هولا منه مع اية امرأة اخرى ! كان يرى فى هذا الشر مخزاة مستنكرة على مثله ، واصبح تـيـاس عنده مبغضا حقيقا باستنزال اللعنـات ، كان من طبعه كراهية الرجس ، ولـكنه تمثل هـذه الرذيلة فـبدت له بافظع مظاهرها ، وما سبق له ان شاطر من صميم قلبه المسيح فى غضبة ولا الملائكة فى حزنها كما شاطرهم الآن .

وكان كلما فكر فى ذلك يزداد ميلا الى انقاذ تاييس من وسـط الفجار ، وما كان ينقصـه الا ان يراها لينتشلها من بينهم ، غير انه كان لا مناص له من التريث حتى يعتدل الجو ، اذ كانت الشمس لا تزال راد الضحى ، فـسار بافنوس فى شوارع البلد الآهلة ، وقد اعتزم الامساك عن الطعام فى هذا النهار حتى يكون اهلا لما يلتمسه من عون الله ورضـاه ، وكان لشـدة حزنه لا يجرؤ على دخول كنيسـة من كنائس المدينة لعلمه بانها ملوثة بدنس الاريوسيين الذين قلبـوا موائد الرب ، وكان امبراطور الشرق يشـد ازر هؤلاء الهراطقة الضالين الذين طردوا الناسيوس بعد ان القوه عن كرسى اسقفيته ، وبثوا الفتن بين نصارى الاسكندرية .

فسار معتسفا ، تارة يلقى بنظره الى الارض فى اتضاع وخشوع ، وتارة يرفع بصره الى السماء فى تجلى الانجذاب ، وبعد ان سـار قليلا على غير هدى وجد نفسـه على رصيف من ارصفة المدينة ، وكان الميناء يضم سفنا عديدة والبحر يموج معجبا بلججه اللجينيـة الزرقاء ، وكان هناك مركب يحمل فى مقدمته « بنت البحر » وقد رفع البحارة مرساه وهم يغنون ويشقون صدور الامواج بمجاديفهم ولم تلبث السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب ، ان اصبحت فى عينى الراهب اثرا بعد عين ، وابحرت يقودها ربانها فى مضيق حوض « الاينـتوس » ، واوغلت فى عباب البحر الزاخر تجر وراءها ذيلا من الزبد .

فقال بافنوس فى نفسه :

ـ لقد تمنيت انا ايضا ان امخر عباب اوقيانوس العالم راتقا

بقوارب بالغناء ، لكنى ما لبثت ان ادركت مبلغ حماقتى فلم تغلبنى الهة البحر على امرى .

ثم جلس على ربطة من الحبال وما لبث ان استغرق فى النوم ، ورأى رؤيا : خيل اليه فيها انه يسمع نفخا فى صـور ، ورأى السماء حمراء كأنها صبغت بالدم ، فعلم ان الساعة قد أتت وحان يوم الحساب ، وفيما هو يضرع الى الله بحرارة ، رأى وحشا هائلا يتقدم اليه وعلى جبينـه صليب من نور ، فعرف فيه ابا هـول ميلـيـه . فامسكه الوحش بين فكيه من غير ان يصيبـه بأذى وحمله فى فمه كما تحمل القطة صغارها وقطع به ممالك عديدة عابرا الانهار ، مجتازا الجبال ، حتى اتى مكانا قفرا مغطى بالصـخور الضخمة والرماد الحار ، وكانت الارض مشققة فى عدة مواضـع يخرج من فوهاتها لهيب وبخار ، فانزله الوحش على الارض برفق وقال له :

ـ انظر ! ..

فاشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى واديا من النيران يتلظى فى جوف الارض بين جرفين من الصخور السوداء ، وشاهد الزبانية تسوم ارواح الخاطئين سوء العذاب ، وقد احتفظت تلك الارواح بمظاهر اشكالها الجسدية حتى ان قطعا من النسيج كانت لا تزال عالقة بها ، وادهشه انه كان يبدو على هذه الارواح علامات الطمأنينة فى هذا العذاب الذى يكابدونه ، ومنها روح طويلة القامة ، بيضـاء معمضة العينين ، على جبينها عصابة وبيدها صولجان ، فتت ، ملأ صوتها الوادى الجدب بالحان موزونة ، وشـدت بذكر الآلهة والابطال ، وكانت العفاريت الصغيرة الخضراء تحرق شفتيها وتحرها بحديد محمى ، وظل طيف هوميروس يغنى ! .. وعلى مقربة منه ، الشيخ انا جراجور ، وكان اصلع اشيب ، يرسم بالفرجار اشكالا فى التراب ، وهناك شيطان يصب الزيت الغالى فى اذنه وهو جاد فى عمله ! ..

ورأى الراهب فيما رأى ، طائفة من الناس على جانب وادى السعير ، يقرأون ويتحدثون فى اطمئنان وهدوء ، وهم يتنزهون كما يفعل الاساتذة والطلبة فى ظل اشجار الاكاديمى ! ..

وهناك على حدة ، وجد الشيخ تيموكليس قد اتخذ مكانا قصيا يهز رأسه هزة الجحود والانكار ، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك شعلة أمام عينيه ، وتيموكليس لا ينظر اليه !

عقدت الدهشة لسان بافنوس فالتفت الى الوحش واذا به قد اختفى ، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له :

— انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فانهم خالدون فى جهنم ، فرائس الأوهام التى أغوتهم وأضلتهم فى الحياة الدنيا ، لأن الموت لم يكشف الغشاوة عن بصائرهم ليروا ، فما الموت بكاف لرفع الحجاب عن الحقيقة . والذين كانوا فى الحياة جاهلين سيبقون فى الجهل خالدين ، وما أولئك الشياطين الذين يشتدون فى تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة يتجلى فيها العدل الربانى . لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيته والشعور به لأنها بعيدة عن كل حق فلا تدرى قضاء الله عليها وتعمى عن الصواب .

فقال كاهن الصينا :

— ان الله على كل شىء قدير ! !

فأجابت المرأة المقنعة :

— انه جل شأنه لا يفعل شيئا عبثا ، لعقابهم يقتضى انارة بصائرهم فاذا ملكوا ناصية الحق أصبحوا كالمجانين .

عاد بافنوس يطل ثانية على الهاوية ، وقد طار لبه روعا وفزعا ، فرأى طيف نسياس تحت الريحان المحترق يبتسم وجبينه متوج بالزهر وبجانبه « أسبازيا » (١) تختال بدلال ورشاقة فى ثوبها الصوف ، يلوح عليهما أنهما يتكلمان معا فى الحب والفلسفة ، وعلى محياهما سمات اللاحة والنبل . وكان سيل النار يتساقط عليهما كأنه برد وسلام ، وكانت أقدامهما تطأ الأرض المضطرمة وكأنها العشب الندى . فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجا شديدا وصاح :

— عدلك يارب ، عدلك ! أنزل مقتك وغضبك ! هذا نسياس ، دعه يبكى ويتوجع ! أجعل أسنانه تصطك . انه جنى على تاييس !

---

(١) زوجة بركليس المشهورة بالحسن والمعرفة ، وكان يتردد على بيتها الفلاسفة ومشاهير الكتاب ومن بينهم سقراط .

واستيقظ بافنوس بين ذراعى بحار قوى كهرقل كان يحمله ليضعه على الرمل وهو يقول له :

— هدوءا وسلاما أيها الصاحب ! بحق « برونيه » ، اله البحر ، انك تضطرب فى نومك ! ولو لم أكن قد أمسكت بك لسقطت فى « الإيونوستوس » ، فلا تشك فى أنى أنقذت حياتك . كما لا أشك فى أنى أبيع الفسيخ ! !

فأجابه بافنوس بقوله :

— الحمد لله ! ..

ثم نهض وسار يفكر فى الحلم الذى رآه ويقول فى نفسه :

— ان هذا الحلم شر ظاهر ، انه يسىء الى العزة الالهية بتمثيل الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة ، حقا ان هذه أضغاث أحلام من عمل الشيطان ! ..

وبينما كان يعاتب الله على تخليه عنه وتركه لسلطان الشيطان ، كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة فى طريق واحد . ولما لم يكن معتادا السير فى المدن فانه تعثر فى طيات ثوبه وسقط غير مرة .

وأراد معرفة مقصد أولئك الناس فسأل أحدهم عن سر هذه العجلة فأجابه :

— ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ ، وأن تاييس ستمثل ؟ هؤلاء كلهم ذاهبون الى الملعب وأنا ذاهب اليه مثلهم ، فهل تروق لك صحبتى ؟ ..

ففطن بافنوس الى أن رؤية تاييس فى ألعابها توافق خطته ، وتبع الرجل الغريب .

وكان الملعب أمامهما مزدانا أبوابه بصور الوجوه المستعارة الراعبة على سورة تماثيل لا تحصى ، فتبعا الجمهور ودخلا دهليزا ضيقا فى نهايته مدرج تسطع فيه الأنوار ، فجلسا فى أحد الصفوف .

وكان المسرح باديا فى أجمل زينة وأبدع مثال ولا يزال خاليا ، ولم تك ثمة ستار يحجب المشهد ، وكان على المسرح هضبة كالتى كان يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم ، وكانت هذه الهضبة فى وسط معسكر ، وقد وضعت أمام الخيام حزم الرماح ، وعلقت التروس الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر

البلوط ، يخيم عليها جميعا السكون . لكن دويا كأزيز النحل دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون ، وقد تحولت وجوههم المحمرة ، من انعكاس الثياب القرمزية عليها ، نحو ذلك المكان الرحب الصامت بهضبته وخيامه . وكانت النساء يضحكن وهن يأكلن الليمون ، وكان المترددون على الملعب يتلاقون فيتعارفون بابتهاج وابتسام .

صلى باقنوس في نفسه ، وامسك عن لغو الكلام ، لكن رفيقه اخذ ينتقد الملعب ، ويشكو من تأخر حاله ، فقال :

— قديما كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه المستعارة أشعار يوريبدس ومناندر ، اما الدراما فلا تلقى الآن وانما يقلدونها باشارات كأنهم صم بكم ، ولم تبق لنا من المشاهد السامية التى وضعت اكراما لباخوس فى اثينا الا ما يستطيع ان يقومه الرجل الساذج ، لانه ليس سوى مظهر واشارة ؛ اما برقع المأساة الذى كان موضع الفم فيه مجهزا بالسنة من معدن لتزيد فى جهارة الصوت ، والمطولات التى كان يلبسها الممثلون فتلقيهم طول الآلهة ، وجلال المأساة والقصائد التى كانوا يتغنون بها .. هذه كلها قد امحت ، وحل الممثلون الصامتون ، والراقصات السافرات محل بولوس وروسكيوس ؛ ترى ماذا كان الاثينيون معاصرو بركليس يقولون لو انهم رأوا امرأة تبدو للعيان ؟.. ان سفور المرأة عيب ، ولا ريب ان رضانا به تقهقر وانحطاط ، حقا ، ان المرأة هى عدو الرجل الطبيعى وسوءة الوجود .

فأجاب باقنوس :

— اصبت !.. فان المرأة اشد اعدائنا ، لانها تملك قياد اللذات ، وهذا سر قوتها المخيفة .

فصاح دوريون :

— وحق الآلهة ان المرأة لا تمنح الرجال لذة ، بل تجلب الحزن والنصب ، والهموم الساحقة !.. الحب مصدر آلامنا المحرقة ! اسمعنى ايها الاجنبى !

ذهبت فى صباى الى تريزنا بارجوليد ، ورأيت هناك ريحانة كبيرة الحجم متفقة الاوراق ، ويقول سكان تريزنا عنها : انه لما

حاولت الملكة فيدروس بحب هيبوليتس ، قضت سحابة يومها جالية فى عنى وكلال تحت هذه الشجرة . وفى اثناء ضجرها واسيالها اطلقت دبوسها الذهبى الذى يمسك شعرها الاشقر ووخزت به اوراق الشجرة ذات الشذى العطرى . وبعد ان صادت الرجل البرى ، الذى نصب له شرك هواها ، ماتت فيدروس شر ميتة كما نعلم ، فقد اغلقت باب مخدعها وشنقت نفسها بمنطقتها الذهبية معلقة فى مسمار من العاج . وارادت الالهة ان تبقى الريحانة شاهدة على هذا الشقاء ، تحمل فوق اوراقها الفضة المتجددة وخزات الدبوس الى نهاية الدهور . وقد قطفت احدى هذه الاوراق ووضعتها فوق مضجعى زجرا للنفس عن التطوح فى مهامة الحب ، مستعينا بحكمة ابيقور استاذى العظيم الذى من تعاليمه ان الشهوة مخوفة . وصفوة الكلام ان الحب داء محتوم لا خلاص منه غالبا .

فسأله باقنوس :

— فيم مسرالك اذن يا دوريون ؟

فأجاب دوريون باكتئاب :

— لى لذة واحدة ، هى التفكير . وليس لذى معدة ضعيفة متسع ان يبحث عن سواها .

فانتهز باقنوس هذه الفرصة ، وبدأ يعرف الابيقورى بالمسرات الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل فى ذاته العلية . فقال :

— استمع للحق يادوريون وتلقى النور ... !

فما لبث أن رأى الرءوس والأذرع تتجه اليه من كل صوب تأمره بالسكوت . وخيم على الملعب سكون عميق اعقبته نغمات الموسيقى الحماسية .

بدأت الالعاب ، وشوهد الجنود يغادرون الخيام ويستعدون للرحيل وبذلك حدث امر عجيب رهيب ، اذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم انقشعت وظهر طيف « اشيل » فى درع من ذهب ومد ذراعه نحو المحاربين كأنه يقول لهم : « ما هذا يا ابناء داتوس ، اتعودون الى الارض التى لن اراها ثانية ، وتغادرون قبرى بغير أن تقدموا اليه الذبائح والقرابين ؟ » .

فاجتمع فورا قواد الاغريق حول سفح الهضبة ، وبينهم الكاس

ابن لزيس ، ونستور الشيخ ، واجا ممنون يحمل الصولجان وعلى جبينه عصابة ، وجعلوا يتفرسون فيما حدث . وكان بيروس بن اشيل الصغير ساقطا على الارض ، واتضح من حركات عوليس ، المعروف بقلنسوته التي يظهر من تحتها شعره الجعد ، انه راض بما يطلبه طيف البطل ، وكان يحاور اجا ممنون ، واستطاع المتفرجون ان يفهموا اقوالهما من اشاراتهما ، وحسبوا ملك اتيكا يقول :

— ان اشيل يستحق منا كل اعظام وتكريم ، وهو الرجل الذى مات اشرف ميتة في سبيل اليونان ؛ وهو يطلب العذراء بوليكسنا ابنة بريام ليضحي بها على قبره . فيا ايها اليونانيون ! ادخلوا السرور على طيف البطل واجعلوا ابن بيليه يفرح في مقره الابدي .

لكن ملك الملوك اجاب :

— لنبقين على عذارى طروادة اللائي انقذناهن من المذابح ، فكفى ما نزل من الاحن والمصائب بالجنس البريامي الجليل .

قال ذلك لانه كان يهوى اخت بوليكسنا ويقاسمها مضجعها ؛ فعيره عوليس الحكيم انه يفضل فراش كاساندرا على رمح اشيل .

واخيرا ، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بان قرعوا اسلحتهم بعضها ببعض ، وتقررت تضحية بوليكسنا ، فاطمأنت روح اشيل واختفى طيفه مغتبطا .

وكانت الموسيقى تارة تعصف وتثور ، وتارة تئن وتتوجع ، وهي تماشي احساس الجمهور وعواطفه ، فصفق الحضور طربا واعجابا الا بافنوس ، الذى يعزو كل شيء الى الله الحق ، فانه قال :

— من هذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبدوا الآلهة الباطلة ! ..

فاجابه الابيقوري :

— ان الاديان كلها تلد الجرائم ! ولحسن الحظ ، اولى الاغريق الحكمة ، فخلص الناس من مخاوف المجهول التي لا اساس لها ..

وهنا غادرت هيكوبا الخيمة التي كانت فيها اسيرة وهي شعثاء الشعر ، ممزقة الثوب ، فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين حين شاهدوا صورة شقائها مجسمة ؛ وكانت هيكوبا قد انذرت برؤيا صادقة ، فبكت واستبكت لنفسها ولابنتها ، فدنا منها عوليس

وسألها ان تسلم بوليكسنا ، فشدت شعرها بيديها ، وخدشت خديها باظافرها ، وقبلت يدي ذلك الرجل الغليظ القلب الذى خاطبها بقوله :

— تعقلي ياهيكوبا واخضعي لحكم الضرورة ، فان في منازلنا ايضا امهات عجائز يبكين اطفالهن الذين ناموا تحت اشجار صنوبر ايدا نوما ابديا .

اما كاسندرا التي كانت يوما ملكة آسيا الفتية ، واصبحت الآن جارية ، فانها حثت التراب على رأسها .

ثم رفع ستار الخيمة ، وظهرت العذراء بوليكسنا ، فسرت في المشاهدين جميعا هزة اذ عرفوا انها تاييس ، وابصر بافنوس ثانية المرأة التي جد في طلبها .

وظهرت تاييس بعد ان رفعت بيدها البيضاء ستار الخيمة ، ثم لبثت واقفة بلا حراك كتمثال بديع ، والقت من عينيها البنفسجيتين نظرات الدلال والخيلاء ، ففتن جمالها الباهر كل قلب ، واحس كل من شاهدها برجفة اثارت فيه عوامل الشفقة والحنان .

وارتفعت من الحاضرين اصوات الاستحسان ، حتى ان بافنوس عقد يديه فوق صدره ، وشد على فؤاده مفتونا ، وتنهد متأوها ، وقال :

— ربي ان هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ، على عبادك !

وكان دوريون اقل تأثرا منه ، فقال :

— حقا ان الذرات التي تألفت منها هذه المرأة كونت تركيبا بديعا يسر النظر ، وليس ذلك الا احدى دعابات الطبيعة وهي تلهو وتلعب ، فالذرات لا تدرك ما تكونه ، وسوف ينحل بعضها عن بعض وتفترق كما اتحدت ، اي بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق ، واين الذرات التي تكونت منها لاميس او كليوباترا ؟.. لست انكر ان النساء في بعض الاحيان جميلات ، لكنهن جعلن عرضة القبح والثقل والقذارة ! !

هذه مسائل تشغل عقول المفكرين ، في حين ان العوام لا يعنون بها ولا يلتفتون اليها ، النساء يغرسن الحب فينا ويوحينه الينا ، ولكن الهيام بهن مخالف للعقل والحكمة .

كذلك فكر الفيلسوف ، وكذلك فكر الزاهد في تاييس ، واتبع

كل منهما سبيل خواطره ، فلم يلحظا اتجاه هيكوبا الى ابنتها وقولها باشاراتها :

— حاولى ان تؤثرى فى قلب عوليس القاسى ، كلميه بدموعك وجمالك وشبابك !

فارخت تاييس ، اى بوليكسنا ، باب الخيمة ، وخطت خطوة فاستولت على كل القلوب ، ولما تقدمت نحو عوليس بخطا ثابتة سريعة ، بعثت حركاتها المتوازنة ، المرتبطة بانغام الناى الشجية ، فى أذهان الحضور كلهم احلاما لذيذة ، فاحسوا كأنها هى المحور الالهى الذى تدور حوله انظمة الكون جميعا ! فلم يروا احدا سواها ، وكسفت انوار جمالها كل ما عداها ، ولم يحظ الممثلون الآخرون بأدنى التفات ، لم استمر التمثيل .

ادار « ابن ليرت » الحصيف راسه ، واخفى يده تحت معطفه ، ليتحاشى نظرات الفتاة المتضرعة وقبلاتها ، فاشارت اليه العذراء الا يخافها ولا يخشاها ، وقالت بلسان نظراتها الهادئة :

— انى امتك يا عوليس !.. سأتبعك خاضعة للقضاء ، لانى راغبة فى الموت ، انا ابنة بريام واخت هيكتور التى كانت يوما جديرة بالملوك فلن ارضى سيدا اجنبيا — انى بملء الرضا البذ الحياة !..

وكانت هيكوبا جاثية على التراب ، فنهضت فجاة وعانقت ابنتها عناق اليأس والقنوط ، فابعدت بوليكسنا ، بلطف لا يقاوم ، ذراعى امها عنها ، وكأنها تقول :

— لا تعرضى نفسك يا اماه لعدوان السيد ، لا تنتظرى منه شفقة ولا رحمة ، ايتها الام المحبوبة ، هات يدك ذات الغضون وقربى خديك الضامرين الى شفتى !

زاد الحزن وجه تاييس حسنا واشراقا ، وشعر الجمهور بامتنان نحوها لتمثيلها امامه أهواء الحياة واشكالها فى رقة فائقة ، وسامح بافنوس زهوها الحالى اكراما لاتضاعها المقبل ، واثنى على نفسه سلفا من اجل القديسة التى سيقدمها عما قريب الى شعب السماء !

***

وقارب المشهد الختام ، فسقطت هيكوبا كالميتة ، وتقدمت بوليكسنا ، يقودها عوليس ، الى القبر المحوط بصفوة رجال الحرب وصعدت مزفوفة بتراتيل الحزن المؤثرة ، الى قمة الهضبة حيث

وقدم ابن اشيل الخمر فى كاس ذهبية الى طيف البطل ، ولما مد الفريون اذرعهم ليمسكوا بها أشارت اليهم برغبتها فى الموت طليقة غير مقيدة ، كما يليق بسليلة الملوك مثلها ، ثم مزقت قميصها والذهب من موضع قلبها ، فغيب فيه بروس حسامه وقد حول رأسه ، ففاض الدم ، بحيلة فنية باهرة ، متدفقا من صدر العذراء الناصع ، وسقطت بحياء وخفر منحنية وقد نكس رأسها ، وغارت عيناها من تأثير الموت وهوله .

كفن المحاربون الضحية وغطوها بالزنبق وشقائق النعمان فى برهة ملأ الجو فيها بصيحات الفزع والانين والتأوهات ، فنهض بافنوس واعتلى مقعده وتنبأ بصوت جهورى كالرعد ، هذه النبوءة :

— ايها الذين كفروا وعبدوا الشياطين !.. ايها الاروسيون ، وانتم اشد طغيانا من الوثنيين ! تعلموا ! ان ما ترون الآن ان هو الا مثال ورمز ، هى خرافة تشتمل مغزى دينيا ساميا ، فان المرأة التى مثلت امامكم الضحية سوف تقبل الموت بالنشاط فى سبيل الاله المبعوث (١) .

ولكن الجموع كانت قد تسابقت الى الخروج كالموج الزاخر ، واستطاع كاهن انصينا ان يتخلص من دوريون المذهول ، فانطلق وهو لايزال يردد نبوءته .

***

وبعد ساعة من الزمن طرق باب تاييس .

وكانت الممثلة تسكن بيتا محاطا بجنات وارفة الظلال فيها صخور صناعية يتساب فى وسطها غدير مزدان باشجار الحور ، فى حى راكوتيس بقرب قبر الاسكندر .

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالحلى ، وسألته عما يريد ، فاجابها :

— اروم رؤية تاييس ، والله يشهد انى ما اتيت الى هنا الا لرؤيتها .

وابصرت الجارية انه يلبس ثوبا فاخرا ، ويتكلم بابهة السيادة ، فسمحت له بالدخول ، وقالت :

— تجد تاييس فى كهف العذارى ..

(١) يريد به السيد المسيح .

البردى

ولدت تابيس من أبوين فقيرين ، وثنيين ، وفى أيام حداثتها كان أبوها يدير حانة على مقربة من باب القمر بالاسكندرية يتردد اليها البحارة ، فرسخ فى ذهنها تذكار أمور كثيرة عن الحانة وما يتعلق بها ، كانت تذكر أباها وهو متربع فى زاوية البهو ، طويلا ، مهيبا ، هادئا ، كأنه أحد أولئك الفراعنة الذين كان العمى المتسولون يمجدونهم فى أغانيهم المحزنة وهم جالسون فى مفارق الطرق ، وتذكر أيضا أمها النحيلة المكتئبة تذرع البيت وتطوف به كقطة جائعة ، يملؤه صوتها المنكر رعبا ، وعيناها البراقتان شررا ، وقد شاع عنها فى الضاحية أنها ساحرة تتحول فى الليل الى بومة لتلاقى عشاقها !.. على أن هذه الاشاعة زور وبهتان !.. فقد تحققت تابيس من ملاحظتها الدائمة لامها أنها لم تشتغل قط بفنون السحر ، ولكن لشدة تفانيها فى الشح والجشع كانت تقضى سواد ليلها تحصى دخل يومها .

فأبوها الفاتر الهمة ، وأمها البخيلة ، كلاهما ألقيا حبلها على غاربها وتركاها كدجاجة فى حظيرة الطيور البيتية ! فمهرت مهارة لا تجارى فى سلب دراهم البحارة السكارى ، تتناولها من أحزمتهم وهى تباسطهم بالأغانى الصبيانية ، والكلمات البذيئة التى كانت تجهل معناها ، وكانت تنتقل من ركبة الى ركبة فى القاعة المشبعة برائحة الخمور والقرب الراتينجية ، ثم تعود ويداها الصغيرتان قابضتان على الدريهمات ، ووجهها مندى برشاش الجعة المتطاير ، مخدش من اللحى الكثة ، وتجرى لشراء أقراص الشهد من امرأة عجوز جالسة فى كنة تحت باب القمر .

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم ، فيذكر البحارة ما لاقوه من الأخطار فى أثناء اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون النرد والكعاب ، ويطلبون ، وهم يجدفون ، أحسن جعة كلكيلية .

وكانت الطفلة تابيس تستيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعراكهم ، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف المحار وسط الصخب والضجيج المتعالى ، وترى بعض الأحيان ، على ضوء المصابيح الكثيرة الدخان ، المدى تلمع والدم يسيل ...

ولم تعرف الطيبة البشرية فى ريق عمرها الا فى شخص «احمس» الذى كانت تقاسمه المذلة ؛ واحمس هذا عبد البيت ، وهو نوبى أشد سوادا من القدور التى يعنى بغركها وتنظيفها !.. لكنه كان طيبا كالليل الذى يقضى فى نوم عميق لا يتخلله سهاد !.. وطالما وضع تابيس على ركبتيه يقص عليها قصصا عن مغاور مطوية كنوزا وعن بيوت لملوك أشحاء أعدموا الذين بنوها لهم !.. وكان فى تلك القصص أيضا لصوص حذاق يتزوجون من بنات الملوك ، ويسرقون أهراما !..

فأحبت تابيس الصغيرة احمس حب الطفلة للأم والاب والمرضع والكلب ! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه الى قبو دنان الخمر وحظيرة الدجاج بين الفراخ الضامرة المتفشة التى ترفرف طائرة أمام مدية الطاهى الزنجى أسرع من فراخ النسور ! وفى كل ليلة تقريبا ، كان يصنع لتابيس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد ، وفيها كل معداتها .

وكانت احدى اذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له ، وقد ملأت الندوب جسده ، ولكن كان على وجهه مسحة الطمأنينة والانبساط ، ولم يخطر لاحد أن يسأله من أين استمد عزاء النفس وراحة الضمير ، فقد كان ساذجا كالطفل ، وكان وهو يؤدى عمله اليومى الشاق ينشد بصوت أجش أناشيد تبعث فى نفس الفتاة الرجفة والأحلام .

كان يترنم مسرورا بصوت جهورى يقول :

ــ خبرينا يا مريم ، ما رأيت حيث كنت ؟ ..

ــ رأيت الكفن ونسيج الكتان ، والملائكة جالسين عند القبر ، وشهدت مجد المبعوث ...

فسألته تابيس مرة :

ــ لماذا تتغنى يا أبت بقولك : « الملائكة جالسون عند القبر ؟ »

فاجابها :

— ايتها الصغيرة ، يانور عيني ! انى اغنى بذكر الملائكة ، لان سيدنا المسيح قد صعد الى السماء .

كان احمس مسيحيا ، معمدا ، وفى اجتماعات المؤمنين التى يحضرها سرا فى الوقت المعين لتومه ، كان معروفا باسم تيودور .

فى ذلك العهد كانت الكنيسة تقاسى اكبر البلاء واشد الاضطهاد ، فبامر الامبراطور هدمت الكنائس ، واحرقت الكتب المقدسة ، وصهرت الاوعية الطاهرة والمسارج ، وجرد المسيحيون مما ملكت ايمانهم ، وما كانوا يتوقعون سوى الموت ، وساد الرعب طوائف الاسكندرية وبلاد العرب وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية ، وسلطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الاساقفة والعذارى فمزقتهم شر ممزق ، فانقض انطوان ، زعيم المؤمنين الذى كان مشهورا فى مصر بزهده وتقواه ، انقضاض النسر على مدينة الاسكندرية ، وخف من كنيسة الى كنيسة يشدد عزائم المؤمنين ، ويبث فى قلوبهم روح الشجاعة والقوة والايمان والصبر على المكاره ، وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغا اشده ، فارتد كثيرون منهم لما اصابهم من الجزع ، وهرب آخرون الى الصحراء يامل ان يعيشوا فيها نساكا زاهدين ، او لصوصا ناهبين !

اما احمس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف اليها ، فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر مبتهجا بدين المسيح ، ولما شاهد انطوان العظيم ، قبيل رجوعه الى الصحراء ، هذه الحمية الصادقة ، احتضن العبد الاسود ومنحه قبلة السلام . . .

***

ولما بلغت تاييس السابعة ، بدأ احمس يحدثها عن الله ، قال :

« ان الله سبحانه وتعالى قد عاش فى السماء ، كفرعون ، فى خيام حريمه ، وتحت اشجار جناته ، وهو ازلى منذ الازل ، لا بداية له ، وليس له من ولد سوى الامير يسوع الذى يحبه بكل قلبه ، والذى يفوق بجماله العذارى والملائكة جميعا » .

وقال الله للامير يسوع :

« اترك حريمى وقصرى ونخيلى والهارى وانزل الى الارض لخير البشر ، وستكون فيها كطفل صغير ، وتعيش فقيرا بين الفقراء ، وسيكون الالم خبزك اليومى ، وستذرف دموعا غزيرة تجرى انهارا يستحم فيها العبيد المرهقون مبتهجين .. اذهب يابنى !.. » فاطاع الامير يسوع وهبط الى الارض بمكان يسمى بيت لحم فى ارض اليهودية ، وسار فى الرياض المنمقة بشقائق النعمان قائلا لصحبه :

— طوبى لاولئك الجياع لانى ساجلسهم على مائدة ابى !.. طوبى لاولئك العطشى لانهم سيشربون من عيون السموات !.. طوبى لاولئك الذين يبكون لانى سامسح دموعهم بنقب ابدع من نقب القيان !..»

لهذا احبه الفقراء وآمنوا به ، لكن الاغنياء مقتوه خشية ان يفضل الفقراء عليهم .

« وفى ذلك العهد كانت كليوباترا وقيصر قوة فى الارض لاتتحدى ، والاهما كرها يسوع وامرا الحكام والكهنة ان يقتلوه ، فنصب امراء سورية ، اطاعة لملكة مصر ، صليبا فوق جبل عال وصلبوا المسيح عليه ، بيد ان النساء غسلن جثته ودفنها . ثم قام الامير يسوع من بين الاموات ، وخرج من قبره ، وصعد الى الله ابيه » .

ومنذ ذلك العهد يصعد الى السماء كل الذين يستشهدون فى سبيله .

فيفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم :

— على الرحب والسعة ، لانكم تحبون ولدى الامير ! اغتسلوا ثم كلوا واشبعوا !

« يستحمون على انغام الموسيقى الشجية ، ويرون فى اثناء الطعام رقص القيان ، ويصغون لحكايات ما ان لها من ختام ! وهم لدى الله الرءوف اعز عليه من نور عينيه ، لانهم ضيوفه ، وسيكون من نصيبهم طنافس قصوره ورمان جناته ! »

ضرب احمس فى اقواله على مثل هذه الاوتار الحساسة ، وهكذا علم تاييس الحق واشتهواها ، فقالت معجبة :

— أود لو آكل من رمان الله تعالى ! !

فاجابها احمس :

« ان الذين عمدوا فى يسوع يذوقون وحدهم فاكهة السماء » .

فطلبت تاييس أن تتعمد ، ولما راى منها ايمانها يسوع قر رايه على أن يمعن فى تهذيبها ، حتى اذا عمدت امكن أن تنضم الى الكنيسة ، واشتد حبه لها كابنته الروحية » .

وكانت تاييس منبوذة من والديها الظالمين ، فلم يكن لها فراش تحت السقف الأبوى ، فنامت فى زاوية من الاسطبل بين الانعام ، وهناك وافاها احمس سرا تحت جنح الدجى ، واقترب بخفة من القش الذى افترشته ، وجلس على كعبيه ، مزدوج الساقين ، معتدل القامة ، جلسة توارثها الخلف عن السلف من أبناء جنسه ، واختفى وجهه وجسده المتشح بالسواد ، فى الظلمات ، ولمعت عيناه الكبيرتان البيضاوان وانبعث منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب .

ثم تكلم بصوت اجش مؤثر ، فيه نغمة الموسيقى المحزنة التى تسمع عند المساء فى الطرقات ...

وفى بعض الاحيان كان نهيق حمار او خوار ثور يصحب صوت احمس وهو يرتل آيات الانجيل ، فيتألف من امتزاجها نغم موسيقى كأنه صادر عن جوقة ملحنين للارواح غير المنظورة ! !

تدفقت كلماته بهدوء فى جنح الظلام ، ممزوجة بالحماسة والرحمة والامل ... فشدت المتنصرة بيدها على يد احمس وقد اطمأنت لهذه الانغام التى تجرى على وتيرة واحدة ، وسكنت نفسها لصور مخيلتها المبهمة ، فاخذ الكرى بمعاقد اجفانها ، فنامت وادعة باسمة بين ايقاع الحان الديجور والاسرار القدسية ، تحت ضوء نجم بزغ من ثقوب فى سقف الاسطبل .

❊❊❊

استغرق تعليمها الاولى حولا كاملا ، حتى جاء الموسم الذى يحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح ، ففى ليلة من ليالى ذلك الاسبوع المجيد ، كانت تاييس نائمة على حصيرتها فى القبو ، فشعرت بأن العبد قد حملها وعيناه تسطعان بنور غريب ، ولم يكن كعادته فى سرواله الممزق ، بل كان يرتدى عباءة طويلة بيضاء لف بها تاييس قائلا لها بصوت خافت :

ـ تعالى ياروحى ! تعالى يابنتى ! تعالى يا فؤادى ! تعالى ارتدى ثوب التعميد ... !

ثم حملها ضاما اياها الى صدره ، وكانت خائفة لكنها تواقة الى الاستطلاع ، فاخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها بذراعيها ، وقد جرى بها يشق حجاب الظلمات .

سارا فى دروب ضيقة واجتازا حى اليهود ومرا اولا بمقبرة انبعث منها صياح العقاب الرهيب ، ثم بمفرق طرق علقت فوق صلبانه اجساد المعذبين وقد حطت على اذرعهم الغربان الناعقة تنقرها ، فخبأت تاييس رأسها فى صدر العبد ، ولما فتحت عينيها رأت نفسها فى كهف ضيق مضاء بشعل راتنجية ، منقوش الحيطان بصور كبيرة تظهر فى دخان المشاعل كأنها احياء تتحرك ... وهى صور رجال مرتدين جلاليب طويلة يحملون السعف فى وسط حملان وحمام وعنقود كرم .

وعرفت تاييس من بين هذه الاشكال يسوع الناصرى بشقائق النعمان المزهرة عند قدميه ، وفى وسط القاعة ، بقرب جرن المعمودية المملوء بالماء ، وقف شيخ هرم مرتد حلة قميص قرمزية مطرزة بالذهب ، وعلى رأسه تاج اسقف ، وقد تدلت من وجهه النحيف لحية طويلة ، وعلى رغم حلته الفاخرة ، كانت تلوح عليه سيماء التواضع ودماثة الخلق ، ذلكم المطران فيفانتوس الذى كان اميرا مبعدا من كنيسة برقه واصبح الان ينسج من شعر الماعز قماشا صفيقا ليقيم صلبه ، وقد وقف بجانبه غلامان فقيران ، وعلى مقربة منه حملت عجوز زنجية ثوبا صغيرا ابيض ، فانزل احمس البنت الى الارض ، وركع امام الاسقف وقال :

ـ هذه هى يا ابى ، النفس الصغيرة ، ابنة روحى ، احضرتها لك حتى اذا ما راقت سيادتك انعمت عليها حسب وعدك بمعمودية الحياة !

فمد المطران ذراعيه واظهر يديه المشوهتين ، اللتين نزعت اظافرهما عقابا على جهره بالايمان فى ايام المحن والاضطهاد ،

فارتجفت تاييس خيفة والقت بنفسها فى حضن احمس ، لكن الكاهن لاطفها وسكن روعها بقوله :

ـ لا تخافى ايتها الطفلة المحبوبة ، فان لك هنا اباك الروحى الذى يدعى بين المؤمنين تيودور ، ولك أم صالحة ترعاك ، وهى التى خاطت لك بيديها ثوبا أبيض .

ثم التفت الى الزنجية وقال :

ـ انها تدعى « نيتيدا » وهى على هذه الارض جارية ، لكن يسوع سيرفعها فى السماء الى صف عرائسه !

ثم سأل الطفلة المتنصرة :

ـ اتؤمنين يا تاييس بالله الاب القادر على كل شىء ؟ وبابنه الوحيد الذى مات فى سبيل خلاصنا ؟ وبكل تعاليم الرسل ؟

فاجاب الزنجى والزنجية ، اللذان كانا قابضين على يديها ، بالايجاب .

وطبقا لاوامر الاسقف ركعت نيتيدا وتعت عن تاييس ثيابها كلها ، فصارت عارية الا من رقية فى عنقها ، ثم غطسها المطران ثلاث مرات فى جرن المعمودية ، ومسحها بالزيت ووضع حبة من الملح على شفتيها ، وبعد تنشيف جسدها الذى كان معدا بعد تجارب عديدة للحياة الخالدة ، البستها نيتيدا الثوب الابيض نسج يديها .

ثم منحهم الاسقف جميعا قبلة السلام ، وانتهت الحفلة لنزع حلته الكهنوتية .

ولما صاروا جميعا خارج السرداب قال احمس :

ـ ينبغى ان نغتبط بتقديمنا اليوم نفسا لله ، فهلم نذهب الى منزل سيادتكم ونقضى بقية الليل بالحبور .

فاجاب المطران :

ـ احسنت يا تيودور ...

ثم قادهم الى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة متاعها نولان ، ومنضدة كبيرة ، وسجادة بالية .

فصاح النوبى عند دخولهم :

ـ هات يا نيتيدا الموقد وجرة الزيت ، ولنطهين اكلة هنيئة !

قال هذا واخرج من تحت عباءته بعض السمك ، واشعل نارا واخذ يقليه ، وجلس الاسقف والطفلة والغلامان والعبدان فى دائرة

فوق السجادة ، واكلوا السمك المقلى وحمدوا الله .

وتكلم فيمانوس عما عاناه من الالام المبرحة ، وبشر بفوز الكنيسة القريب ، وكانت لغته جافة ، غير انها فائضة بالمجازات الفصيحة والنكات البديعة ، وشبه حياة الاستقامة بنسيج أرجوانى موشى ، قال فى شرح سر العماد :

ـ ان الروح القدس يرفرف فوق المياه ، ولهذا يتلقى المسيحيون عماد الماء ، غير ان الشياطين يسكنون ايضا الغدران ، كذلك الينابيع المخصصة للحوريات خطرة مخوفة ، ومن المشاهد ان بعض المياه يسبب امراضا مختلفة للنفس والجسد .

وجاء فى بعض كلامه باحاجى ومعميات ملكت على البنت مشاعرها تيها واعجابا ! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئا من النبيذ، فانطلقت السنتهم من عقالها واخذوا ينشدون ويسجون ، ثم نهض احمس ونيتيدا ورقصا رقصة غريبة نوبية تعلماها فى صباهما ، وكانت بلا ريب شائعة فى القبيلة منذ قديم الزمان ، وهى رقصة غرامية ، يكون فيها تحريك الاذرع والجسد باكمله ، ثم الاختيال بالتناوب على الهرب ، ثم اقتفاء الاثر ، فادارا عيونهما الكبيرة واظهرا اسنانهما اللامعة وهما يبتسمان .

لذلك تلقت تاييس التعميد القدسى .

***

جاءت تاييس بحب اللهو والمرح ، وتولدت فى نفسها ، وهى تنمو وتكبر ، رغبات مبهمة واهواء ... فكانت ترقص وتغنى سحابة نهارها مع اولاد الشوارع المشردين ، وفى الليل تعود الى بيت ابيها وهى لا تزال تغنى ...

ثم اخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة احمس الرفيق الرزين ، فلم تلحظ ان صديقها قد قل اجتماعه بها ، وكان الاضطهاد قد انقطع واصبحت محافل المسيحيين اكثر انتظاما ، واخذ النوبى يحضرها على الدوام ، وزادت حميته اشتعالا ، وكان فى بعض الاحيان يفوه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله : « ان الاغنياء سوف يفقدون اموالهم ! » وذهب مرة الى الساحات العامة حيث اعتاد فقراء المسيحيين ان يجتمعوا ، وهناك جمع البائسين الراقدين

في ظل الجدران العالية ويبشرهم بتحرير الارقاء ، ودنو يوم العدالة ، قال :

— سوف يشرب الارقاء في ملكوت السموات خمرا صافية ، ويأكلون فاكهة لذيذة ، على حين ان الاغنياء يكونون جاثمين عند اقدامهم كالكلاب يلتقطون فتات موائدهم !

لم تبق هذه الاقوال في طي الكتمان ، بل ذاعت في نواحي المدينة كلها ، وخشي السادة ان يغري احمس عبيدهم بالتمرد ، وحقد صاحب الحانة عليه حقدا بالغا ، ولكنه كتم عنه حقيقته .

ففي ذات يوم اختفت من الحانة مملحة من الفضة مخصصة لمائدة الالهة ... فاتهم احمس بسرقتها نكاية في سيده وفي آلهة الامبراطورية ، وكان الاتهام بغير دليل على الاطلاق ، وانكر العبد التهمة بكل قواه ، على انه سيق الى المحكمة ، وحكم عليه القاضي بالموت ، اذ كان على زعمهم عبدا رقيقا لا قيمة له ولا اعتبار ، وقال له :

— ستسمر في صليب يداك اللتان لم تعرف كيف تحسن استخدامهما .

فسمع احمس الحكم بهدوء ، وحيى القاضي باحترام فائق ، واقتيد الى السجن العام ، وفي اثناء الايام الثلاثة التي قضاها فيه ظل يكرز بالانجيل للمسجونين ، وقيل انه في وقتها تاثر المجرمون والسجان نفسه بكلماته وآمنوا بالمسيح المصلوب .

ساقوه الى احد تلك المفارق التي مر بها فرحا مغتبطا ذات ليلة منذ اقل من عامين ، حاملا تحت عباءته البيضاء تاييس الصغيرة ابنة روحه ، وزهرته المحبوبة .

ولما صلب وسمرت يداه لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفة ، غير انه تمتم قائلا : « ظمآن ! .. انى ظمآن ! .. »

ودام كربه ثلاثة ايام بلياليها ، ولا يكاد المرء يصدق ان الجسد البشري يستطيع ان يتحمل مثل هذا العذاب الطويل ، حتى ظن مرارا انه مات ، وكان الذباب قد التهم بعض جفنيه ، بيد انه ما لبث ان فتح عينيه الداميتين بغتة ، وفي صبيحة اليوم الرابع غنى بصوت جهير ، أرق من صوت الاطفال .

فخبريها يا مريم ماذا رأيت حيث كنت ...
ثم ابتسم وقال :
— ها هم ملائكة الله مقبلون !.. يحملون الى خمرا والمارا ...
ما الذي حفيف اجنحتهم ...
واسلم الروح .

وظل وجهه وهو ميت مشرقا بانوار السعادة الابدية ، فكان موضع اجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب، واتى فيفانتوس مصحوبا ببعض الاخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفنها بين بقايا الشهداء في قبر القديس يوحنا المعمدان ، واحتفظت الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس « تيودور النوبى » الموقر .

وبعد ثلاث سنوات اصدر قسطنطين ، فاتح ماكسانس ، مرسوما امن فيه المسيحيين .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر احدى عشرة سنة حين مات صديقها معذبا ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد ، ولم تكن روحها من السمو بحيث تدرك ان العبد احمس كان هانئا جد الهناء بحياته وموته على السواء ، وتولد في ذهنها الضيق ان في استطاعة المرء ان يكون في هذه الدنيا صالحا ولكن ذلك يكلفه عناء التباريح والآلام ، فخافت ان تكون صالحة لان جسدها الغض الرقيق لايحتمل آلام الصلاح !

وكان لها ، قبل الاوان ، عشاق من صبيان المرفأ ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون في المساء في ضواحي المدينة مقتدين ، وتشترى بما يمنحونها به ما تشتهيه من الحلوى وادوات الزينة ...

واساءت امها معاملتها لانها لم تكن تأخذ الى البيت شيئا مما تربحه من النقود ، فكانت كثيرا ما تهرب وتجرى حافية الى اسوار المدينة لاجتناب صفعات امها ، وتختبىء مع الهوام في شقوق الاحجار ، وهناك كان يخامرها حسد النساء اللاتي تراهن مارات متبرجات في ابهة وبهاء ، محمولات في محفاتهن على اكتاف الارقاء .

وفي ذات يوم نالها من الضرب فوق المعتاد ، فخرجت وانطرحت عند بوابة المدينة ، ثائرة النفس واجمة ، وبينما هي على هذه الحال اذا بامرأة عجوز قد وقفت امامها ونظرت اليها مليا وهي ساكنة ثم قالت :

ـ يا لك من زهرة حسناء أيتها الطفلة الفتانة ! ما أسعد أباك الذى أوجدك وأمك التى ولدتك !

فنظرت تايبس صامتة مطرقة وقد احمر جفناها من كثرة البكاء .

فعادت العجوز تقول :

ـ يازنبقتي البيضاء !.. اليست امك سعيدة الجد لانها ارضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ او ليس ابوك مغتبطا من صميم فؤاده برؤيتك؟

فاجابت الطفلة كأنها تحدث نفسها :

ـ ابى زق منتفخ من الصهباء ، وامى علقة شرهة !..

فنظرت العجوز ذات اليمين وذات الشمال لتستوثق ان ليس عليها رقيب ، ثم قالت متلطفة :

ـ ايتها السوسنة النضرة ذات البهاء !.. ايتها الحسناء التى تشرب النور وتنهل الضياء !.. تعالى معى ، وستكون حياتك سلسلة متصلة الحلقات من الرقص والابتسامات ! ساطعمك الشهد وسيحبك ابنى ، ابنى الصميم ، حبه لعينيه ، وانه لفتى لو علمت غض الاهاب فى شرخ الصبا ، فاتن المحيا ، ليس له فى ذقنه الا لحية خفيفة ، وجلده ناعم بض ، وانه لخنوص (١) من خنانيص اشارتيه !

فاجابت تايبس :

ـ خذينى ، انى ذاهبة معك !

ثم نهضت وتبعت العجوز الى خارج المدينة .

***

كانت هذه المرأة ، وتدعى « مروا » ، تأخذ البنات والصبيان من بلد الى بلد ، وتعلمهم الرقص ثم تؤجرهم بعدها لسراة القوم ، ليرقصوا لهم فى الولائم والحفلات ...

ولما رأت ان تايبس ستغدو عما قليل اجمل النساء ، علمتها الموسيقى والغناء ، مستعينة على ذلك بالسوط ، وكانت تجلد ساقيها البديعتين بسيور من الجلد اذا لم تقف عند سماع نغمات القيثارة .

---

(١) الخنوص : الخنزير الصغير

اما ابنها فكان امرأ اجهاش ، سقطا لا تبدو عليه حقيقة سنه ، ولا يميز الناظر اليه كنه جنسه !.. وكان ينتهر الفتاة ويصب عليها جام حقده على النساء جميعا . ولما كان ينافس الراقصات متكلفا رشاقتهن ، فقد تعلمت منه تايبس فن التمثيل الايمائى الصامت والتعبير عن العواطف الانسانية بواسطة ملامح الوجه والهيئة والوضع ، وامتازت بتمثيل اهواء الغرام ، ولقد محضها ، على كره منه ، نصح استاذ ماهر ، بيد انه كان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويعرض ذراعيها او ينخسها بابرة فى ظهرها حين كان يتضح له انها خلقت لامتاع الرجال !

وبفضل هذه الدروس اتقنت ، فى زمن قصير ، فنون الموسيقى ، والتمثيل الصامت ، والرقص ، ولم تدهشها قط فظاظة معلميها ، اذ لم تكن ترى اية غرابة فى ان تهان وتساء معاملتها ، بل شعرت بشيء من الاحترام نحو تلك الموسيقية العجوز التى تجرع النبيذ الاغريقى !

ولما جاءت « مروا » مدينة انطاكية ، اطنبت فى مدح تلميذتها ، راقصة عازفة ، لوجهاء المدينة واعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب .

رقصت تايبس فنالت الاعجاب ، واخذها السراة بعد انقضاء الولائم الى احراج نهر العاصى ، فسلمت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحب ثمنا ، ولكن حدث ذات ليلة ، بعد ان رقصت امام الظرف شباب المدينة ، أن اقترب منها ابن الوالى يتوثب فتوة ، ويختال عزة ، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقبل :

ـ ليتنى التاج المنعقد على مفرقك يا تايبس ! ليتنى القميص المزرود على جسمك البديع ! ليتنى نعل قدميك الجميلتين ! انى اروم ان تطئى بقدميك هامتى ، وان يكون قميصك وتاجك من عناقى وقبلاتى ، فتعالى ايتها البنية المليحة ، تعالى الى بيتى ، ولننس العالم !

نظرت اليه وهو يتكلم ، واستبانت محاسنه ، فشعرت على الفور بالعرق يثلج جبينها ، واستحال لونها كالعشب اخضرارا ، ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة ، فتوسل اليها ثانية ان تتبعه فرفضت ، ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلا ، ولما اخذها بين ذراعيه

ليسير بها على رغمها ، دفعته بخشونة ، فعاد يتوسل اليها ويتضرع وهو يذرف امامها الدموع ويريق العبرات ؛ فامتنعت عليه بسلطان قوة مجهولة لا تقاوم ، فقال المدعوون :

— تبا لها من زمارة حمقاء !.. انها تنبذ لوليوس الفتى النبيل الفتى الجميل !

عاد لوليوس وقد كواه الهوى سواد ليله بناره ، وفي الصباح ذهب ممتقع اللون ؛ أحمر العينين ، وعلق الزهر فوق باب الموسيقارة ؛ وكان الهم والضجر قد اعتريا تاييس ؛ فاعرضت عن لوليوس ؛ على انها كانت تتخيله دائما ، تألمت ولم تدر سر ما تشكو منه ، سألت نفسها لماذا تغيرت هكذا ؛ ومن اين دهمتها الكآبة ؟ ردت كل عشاقها لانهم ازعجوها ، وعافت رؤية الضياء فلبثت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها وراسها غارق في الوسائد ؛ ثم تهيأت للوليوس وسائل اقتحام بابها ، وأتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة ، فلبثت في حضرته خائفة كعذراء بتول ؛ واصرت على قولها :

— لا اريد !.. لا اريد !..

وبعد خمسة عشر يوما وهبته نفسها ، اذ شغفها حبا ، فذهبت الى بيته وعاشت معه ، وكانت ثمة حياة لذيذة ، فكانا يقضيان النهار في خلوة يحدق كل منهما في عيني صاحبه ، ويخاطب احدهما الآخر بكلمات لا يقولها سوى الاطفال ، فاذا جاء المساء تنزها على شفتي العاصي الخاليتين ، وضلا السبيل غير مرة في الاحراج ، واستيقظا احيانا عند الفجر ليذهبا لقطف السوسن فوق منحدرات « سلبيكوس » ، وشربا من كأس واحدة ، وكانت اذا رفعت الى فمها حبة عنب تناولها باسنانه من بين شفتيها !

اتت « مروا » بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية قائلة :

— ابنتي ! ابنتي التي اخذت مني عنوة !.. زهرتي المعطرة ! حشاشة فؤادي ، وفلذة كبدي !

فصرفها لوليوس بعد ان اجزل لها العطاء ، لكنها لما عادت للحف في طلب المزيد من قطع الذهب بعث بها الفتى الى السجن ، وحقق الحكام جرائم عديدة اتهمت باقترافها ، فسيقت الى

الاعدام وطرحت طعاما للوحوش الضارية .

***

احبت تاييس لوليوس بكل ما فيها من هياج التصور وسذاجة النفس ، وقالت له من اعماق قلبها :

— لم ينل احد مني ما نلته !..

فاجابها لوليوس :

— انك لا تشبهين اية امرأة في الوجود ...

وظل السحر ستة اشهر ، ثم انحلت يوما طلاسمه ، فأحست تاييس فجاة نفسها خالية وحيدة ، ولم يبق لوليوس في نظرها لوليوس الذي احبته . وفكرت :

— كيف تغيرت هكذا في طرفة عين ؟ وكيف تغير لوليوس حتى انه صار في نظري مثل سواه من الرجال ، ولم يعد مثل نفسه ؟..

ثم هجرته ، وبفؤادها رغبة خبيثة في أن تجد لوليوس في انسان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه ، وخيل اليها ايضا ان الحياة مع انسان لم تحبه قط ايسر خطبا منها مع انسان صارت لا تحبه ، وصحبت المترفين من ابناء المسرات والفجور في تلك الولائم الدينية ، حيث كانت ترقص في المعابد نخبة من العذارى العاريات ، وتقطع السراري نهر العاصي سابحات ، واشتركت في جميع الملاهي التي اقامتها المدينة البديعة الفاسقة ، واكثرت من التردد على دور التمثيل حيث كان الممثلون الايماليون يأتون من كل حدب وصوب لتمثيل ادوارهم بين تهليل الجماهير الظماءى الى اللهو واللعب .

عنيت بدرس حركات الممثلين والراقصين ، لاسيما الممثلات اللاتي كن يمثلن في الروايات الفاجعة ادوار الربات عاشقات الشبان ، او المخلوقات الهائمات بحب الارباب ، وبعد أن علمت السر الذي به خلبن لب الجمهور ، توقعت أن تبزهن لانها كانت تفوقهن حسنا ودلالا .

فمضت الى رئيس الممثلين وسألته ان يلحقها بفرقته ، وبفضل جمالها ، والدروس التي تلقتها من « مروا » العجوز قبلت وظهرت على المسرح في دور « ديرسيه » ، فلاقت نجاحا فشلا لانها كانت مفتقرة الى المران ، ولأن جمهور المشاهدين لم يشوق الى مرآها

بالاطناب فى محاسنها والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح ، ولكن لم تمض بضعة اشهر حتى انفجر بأس جمالها على مسرح التمثيل بقوة اهتزت لها المدينة من اقصاها الى اقصاها ، فهرع اهل انطاكية الى الملعب حتى اكتظ بهم ، واضطرت قوة الرأى العام زعماء الامبراطورية وقضاتها ورؤساء البلد الى الظهور هناك ، وحرم الحمالون والكناسون وعمال الميناء انفسهم الثوم والخبز ليدفعوا اجر مقاعدهم ، ومدحها الشعراء بقصائدهم ، وخطب فى تجريحها الفلاسفة المتحون فى الحمامات والمدارس ، واشاح عنها الرهبان المسيحيون فى اثناء مرورها فى محفتها !

توجت عتبة بيتها بالزهر ونضحت بالدم ، تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب ، وزنا وكيلا ، لا عدا ، وتدفقت الكنوز التى ادخرها الكهول الاشحاء عند موطىء قدميها كالانهار ، لذلك طابت نفسا وقرت عينا ، ابتهجت لتكريم الجمهور وعطف الآلهة ، وهامت بحب نفسها ، لان الجميع هاموا بحبها !

وبعد أن تمتعت عدة سنوات بحب الانطاكيين واعجابهم ، اشتاقت للعودة الى الاسكندرية لتظهر عزتها للمدينة التى ضربت فى ارجائها وهى طفلة تجر ذيل الشقاء والحرمان وقد هزلها الجوع والمسغبة ،

فكانت هزيلة كالجرادة فى وسط طريق مقفر... فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب ، وغمرتها بالهبات والعطايا ، وكان ظهورها فى الالعاب نصرا مبينا ، وسعى اليها جمهور لا يحصى من المعجبين والعاشقين ، فتلقتهم بفتور وقلة مبالاة لانها يئست من العثور على من يشغل مكانا شغله لوليوس من قلبها .

***

تلقت من بين الجموع الغفيرة الفيلسوف « نسياس » الذى اشتهاها على مجاهرته بالتجرد من الشهوات ، وكان على ثرائه ذكى الفؤاد دمث الاخلاق ، غير انه لم يفتنها بحصافة عقله ولا برقة حاشيته ، فلم تحبه ، بل اغضبتها أحيانا تهكماته الرائقة ، وجرحها بشكوكه الدائمة ، لم يكن يؤمن بشىء ، وهى قد آمنت بكل شىء ، آمنت بالعناية الالهية ، وبقدرة أرواح الشر ، وبالرقى والتعاويذ ، وبالعدل الازلى ، وبيسوع المسيح ، كما آمنت ايضا بان الكلاب

تنبح اذا مرت آلهة جهنم السوداء بمفارق الطرق ! ! وبأن المرأة تستطيع أن توحى الحب اذا صبت شراب العشق فى كأس تحوى جزة شاة مخضبة بالدماء ، وسقته لمن تريده ! ! !

طمحت الى المجهول ، ودعت كائنات لا اسماء لها ، وعاشت فى انتظار دائم ، رؤيتها المستقبل وآمالها تتطلعت الى معرفته ، لاذت برهبان الزيبى وبالسحرة الكلدانيين ، والعرافين الذين مكروا بها وخدعوها على الدوام ، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقا .

خافت الموت ، ورأته فى كل مكان ، وكانت كلما استسلمت للملذات يخيل اليها كأن اصبعا مثلوجة قد لمست كتفها العارية ، فيمتقع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوقان خصرها.

قال لها نسياس :

ـ وماذا يكون لو جرى القضاء بأن تنزل ايتها الشعر ، شامرى الخدود ، الى الليل الابدى ؟ ثم ماذا يكون لو كان هذا اليوم الذى يبتسم لنا الآن فى صفحة السماء المبسوطة ، هو آخر ايامنا ؟ ماذا يضيرنا يا عزيزتى تاييس ، وماذا يكون ؟ الا فلنستمرىء طعم الحياة مستحبا طويلا اذا ما شغفنا كثيرا ، فلا فطنة فى غير الحواس ...

ان الحب هو الفطنة ، اما ما نجهله فليس لنا به شأن ، وما فائدة ازعاج انفسنا لغير طائل ؟

فأجابته غاضبة :

ـ انى امقت الذين على شاكلتك لا يرجون ولا يخافون !.. انى راغبة فى المعرفة !.. راغبة فى المعرفة !..

اخذت تقرأ كتب الفلاسفة لتقف على سر الحياة ، فلم تفهمها ، وكان كلما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها وبين ايام طفولتها ازدادت تعلقا بذكراها . فولعت بأن تسير تحت ستار الظلام ، وهى متنكرة ، فى تلك الدروب والمنعطفات والميادين العامة حيث شبت فى الشقاء والبأساء ، وكم اسفت على فقد والديها ، وبخاصة لانها لم تحظ بلذة محبتها لهما ، وكانت عندما تلقى الرهبان المسيحيين تفكر فى معادها وتضطرب .

وفى ذات ليلة ، بينما كانت تجوس خلال ضواحى المدينة كعادتها ، وهى مرتدية طيلسانا ، وشعرها الاشقر مخبوء تحت قلنسوة

سوداء ، القت نفسها ، دون ان تعرف كيف كان ذلك ، امام كنيسة القديس يوحنا المعمدان الحقيرة ، فسمعت بداخلها ترتيلا ، ورات نورا ساطعا منبعثا من شقوق الباب ، ولا عجب ، فقد جعل المسيحيون لعشرين عاما خلت يحتفلون باعيادهم علانية تحت حماية « فاتح ماكسانس » ، وكانت تلك التسابيح تنادى الارواح نداء حارا لا يرد ، فدفعت الممثلة الباب بيدها ودخلت كمدعوة الى المشاركة فى الاسرار ، فوجدت جمعا حاشدا من النساء والاولاد والشيوخ ، راكعين امام قبر بجانب الجدار ، ولم يكن هذا القبر سوى خابية حجرية نقشت عليها اغصان واعناب نقشا خشنا ، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر ، فكانت مغطاة بسعف النخل واكاليل الورد الاحمر ، وكان المعبد منارا بمصابيح لا عداد لها ، تشق انوارها الظلام الذى يظهر فيه دخان الصموغ العربية كانه ثنايا حلل الملائكة ، وعلى الحائط رسوم كانها رؤى الفردوس..

ولم رهبان فى ثياب بيض خروا سجدا عند مؤخرة الناووس.وكانت التسابيح التى شاركهم الشعب فى ترتيلها تعرب عن بهجة الآلام ، وكانت مزيجا من الفرح والحزن بحيث احست تاييس وهى مصغية بملذات الحياة ولفصص الموت تجرى معا فى مشاعرها المستيقظة ..

ولما اتم المصلون الترتيل ، نهضوا وتوجهوا للتبرك بتقبيل القبر تباعا ، اولئك كانوا قوما بسطاء من اهل الحرف اليدوية ، تقدموا ثابتى الخطا ، شاخصى الابصار ، كليلى الافواه تلوح عليهم سلامة النية ، جثوا واحدا بعد واحد امام الناووس والصقوا به شفاههم ، ورفع النساء الاطفال الصغار على اذرعهن ووضعن خدودهم بلطف على الحجر .

فدهشت تاييس واضطربت ، وسالت شماسا : لم يفعلون ذلك؟ فاجابها :

ـ الا تعلمين ايتها المراة اننا نحتفل اليوم بالذكرى المباركة للقديس « تيودور النوبى » الذى احتمل العذاب فى سبيل الايمان فى عهد الامبراطور ديوقليس؟ انه عاش طاهرا ومات شهيدا ، وهذا هو السبب الذى من اجله قد حملنا الورد الاحمر ونحن فى ثياب بيضاء الى ضريحه المكرم .

فلما سمعت تاييس قوله هذا خرت جاثية واجهشت بالبكاء ، عادت الى ذهنها ذكرى احمس التى كادت تطمسها يد النسيان ، وعلى تلك الذكرى المبهمة ، العذبة ، المؤلمة ، ارسلت اشعة الشموع وعطور الورد ، وسحب البخور ، والحان المزامير، ومظاهر الخشوع وعزة الفخر وجمال المجد .

فحدثت تاييس نفسها :

ـ انه كان ذليلا ، وها هو ذا جليل القدر ، جميل الذكر ! ترى كيف رفع فوق هام البشر ؟ فما هو ذلك الشىء المجهول الذى فاق الثراء والسراء ؟

نهضت ببطء ، واتجهت الى قبر القديس الذى شغف بعينيها البنفسجيتين ، العينين اللتين تلألات فيهما الدموع فى نور الشموع ، ووقفت مطرقة فى مؤخرة الجماعة ، خاشعة متباطئة ، ولثمت قبر العبد بشفتيها اللتين علقت بهما شهوات كثيرة .

***

ولما رجعت الى بيتها وجدت نسياس ينتظرها ، مضمخ الشعر بالطيب مفكوكا قميصه ، يقرا رسالة فى الادب يستعين بها على مضض الانتظار ، فتقدم للقائها مبسوط الذراعين قائلا بصوت ضحوك :

ـ اعرفين يا تاييس الخبيثة ماذا وجدت فى اثناء انتظارك فى هذا الكتاب الذى كتبه ارزن الرواقيين ؟ اهى حكم سامية وسنن عالية ؟ كلا ! رايت على البردى الخشن الف تاييس صغيرة ترقص، والف تاييس ! وكانت كل واحدة منهن طول الاصبع ، ومع ذلك كان ظرفهن لا يحد ، وكلهن تاييس الفريدة ! كان بعضهن يرفل فى حلل من ارجوان وذهب ، وبعضهن يسبح كسحابة بيضاء فى نقب شفافة ، واخريات يوحين اللذة بسكونهن فى سناء عريهن ، وكانت اثنتان منهن متماسكتين بالايدى ، وهما متشابهتان شبها يستحيل معه تمييز الواحدة عن الاخرى ، ابتسمت كلتاهما ، وقالت الاولى « انا الحب » وقالت الثانية « انا الموت » .

قال هذا واحتضن تاييس ، ولم يلحظ انها كانت ترمق الارض بنظرة وحشية ، فاستمر يحدثها بما جال فى ذهنه من الخواطر

والافكار ، وواصل كلامه قائلا :

ـ اجل ! لما وقع تحت ناظرى هذا السطر : « يجب الا يحول شيء بينك وبين تهذيب نفسك » قرات : « قبلات تاييس احر من اللهيب واحلى من الشهد » وهذه هي ـ واللذنب ذنبك ايتها الفتاة اللعوب ـ الطريقة التى اصبح بها الفيلسوف يفهم كتب الفلسفة ! ولا ريب انا ، ما دمنا كما نحن ، لن نجد فى خواطر غيرنا الا خواطرنا بعينهـا ، بل اذا قرانا كتابا فنحن نكاد نقرؤه كما قرات هذا الكتاب ...

لم تكن مصغية اليه ، لان ذهنها كان منصرفا الى قبر النوبي ، فلما سمعها تتنهد اخذ يقبل منابت الشعر من عنقها ، وهو يقول :

ـ قرى عينـا ولا تحزنى يا بنيتى ! لايستطيع المرء ان يكون سعيدا فى هذه الدنيا الا اذا نسيها او تناساها ! ولدينا سر ذلك ، تعالى نخدع الحياة ! انها اهل لان يمكر بها لانها تكيل لنا الصاع صاعين ، هلمى نتبادل الحب !

فدفعته عنها وصاحت بمرارة :

ـ نتبادل الحب ! انك لم تحب قط انسانا .. انت ! ولا انا احبك ! كلا ! لا احبك ! انني ابغضك ، انني العن السعداء الاغنياء كافة واحتقرهم ! اليك عني ! فلا فضيلة فى الدنيـا ولا محبة الا لدى المساكين ، لما كنت طفلة عرفت عبدا اسود مات مصلوبا ، كان طيبا ، كان يفيض محبة ، وقد حظى بسر الحياة ، انك لا تساهل أن تقبل قدميه . اذهب عني ! فانى لا اريد ان اراك بعد الآن ...

ثم انبطحت على البساط وقضت ليلتها فى انين وتحيب ، وصممت من تلك اللحظة أن تقتفى خطوات القديس ثيودور وتعيش عيشة التربة والمسكنة .

وفى اليوم التالى عادت الى الملاهى التى كانت قد اعدتها ، ولما عرفت ان جمالها الذى كان لايزال ساحرا لن يبقى طويلا ، سارعت الى التمتع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز ، واظهرت فى الملعب عناية لم تظهرها من قبل ، فاحيت بتمثيلها تخيلات الحفارين والمصورين والشعراء ، واخذ العلماء والفلاسفة من شكل المثلة

وقوامها وحركاتها وخطرها النظام السماوي الذى يسير الافلاك ، فاعتبروا هذا الكمال المطلق فى عداد الفضائل ، وقالوا : « تاييس ايضا مهندسة ! » ، وباركها الجهلاء والفقراء والاذلاء نقولها الظهور النجوم ، وعدوه نعمة من السماء ، لكنها مع هذا الاعجاب والثناء كانت حزينة شديدة الجزع من الموت ، ولم يك ثمة ما يستطيع ان يرفع عنها همها وبلبالها ، ولا وجدت عزاء فى بيتها وجنانها التى بلغت من الشهرة بحيث تضرب الامثال بها فى المدينة .

غرستها فى حدائقها الاشجار الغالية التى جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس ، يرويها جدول متفجر وسط صف من الاعمدة المهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بناء ماهر ، لتعكس فى بحيرة ترتسم على مرآتها المجاورة التماثيل التى حولها ، وفى وسط الحديقة يقوم « كهف العذارى » الذى يعزى اسمه الى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملون بمهارة وتفنن ، والقائمات عند مدخله ، وهؤلاء النسوة كن قد نضضن ثيابهن ليغتسلن، والتفتن قلقات خشية أن يراهن احد وعليهن علامات الحياء ، وكان الضوء لا ينفذ الى هذا الخدر الا من خلال طبقات المياه الرائقة التى تخففه وتلونه بالوان قزحية ، وعلى جوانب الحيطان علقت

ايضا كما تعلق فى المغاور المقدسة ، التيجان واكاليل الزهر والصور المطورة التى ظهر فيها جمال تاييس وذاع صيته ، وكانت هناك ايضا روائع المأساة واخرى للمهزلة ذات الوان زاهية ، وصور تمثل مشاهد مسرحية واشكالا هزلية او حيوانات خرافية ، وفى وسط الكهف نصب فوق عمود قصير لتمثال صغير لاله الحب « ايروس » مصنوع من العاج صنعا قديما دقيقا عجيبا ، وكان هدية من نيسياس ، ولم عنزة من المرمر الاسود واقعة فى حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقيتين ، وقد التفت حول ضرعيها ستة جداء من المرمر الابيض ، وقد همت العنزة باظلافهـا ورفعت راسها الافطاح كانها كلت وفرغ صبرها من رضاع صغارها ، وكانها تود لو يتاح لها تسلق الصخور .

وكانت الارض مفروشة ببساط بيزنطى ، ووسائد مطرزة بأيدي السمر من اهل كاتاي ، وجلود اسود صحراء ليبيا ، وكان البخور

يتصاعد من المباخر الذهبية . وهنا وهناك أصص من الجزع فيها نبات مزهر ، ووراء ذلك كله ، في الظل الارجواني ، تلمع مسامير ذهبية مثبتة في ذيل « عظم ظهر السلحفاة » سلحفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها تستخدم كسرير للممثلة .

في هذا المكان ، في كل يوم ، بين خرير الماء ، وشذا الزهور وعبير العطور ، كانت تاييس تضطجع برخاوة واستسلام ، في انتظار ساعة العشاء ، تتحدث الى أصحابها ، أو تفكر وحدها في شئون المسرح ، أو في كر الغداة ومر العشي .

***

في ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل في «كهف العذارى» لاحظت في مرآتها العلامات الاولى لتضاؤل جمالها وذبول حسنها . فهالها التفكير في انه سيجيء أخيرا حين الشعر الابيض والغضون والتجعدات ، وعبثا حاولت ان تسكن روعها وتؤمن خيفتها بقولها لنفسها ، قول الواثق المستيقن ، ان احراق اعشاب معينة ، والنطق بتمائم سحرية معلومة تكفى لاعادة نضارتها الاولى ...

واذا بصوت ، لا اثر للرحمة فيه ، يهيب بها : « ستبلغين يا تاييس من الكبر عتيا ! ستشيخين يا تاييس ويدركك الهرم ! » فجمد العرق البارد على جبينها من الجزع ، وطالعت وجهها ثانية في المرآة برقة بالغة ، فالفت نفسها لا تزال جميلة فتانة ، جديرة بأن تعشق وتشتهى ، فابتسمت لصورتها وتمتمت : « ليس في الاسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها قوامي اللدن ، ولا من تماثلني في رشاقة الحركات ، وبهاء الاذرع ، والاذرع ، أيا مرآتي ، هي سلاسل الحب الحقيقية ! » .

واذ كانت تفكر في ذلك رأت رجلا مجهولا ، نحيلا ، مشتعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتديا ثوبا مزركشا ثمينا ، واقفا امامها ، فافلتت مرآتها من يدها ، وصرخت مذعورة .

وقف بافنوس جامدا ، ولما رأى مبلغ جمالها ، قدم من أعماق قلبه هذه الضراعة :

— اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سببا في غوايتي ، بل سببا لهدايتي ! ..

ثم ارغم نفسه على الكلام ، وقال :

— تاييس ! انني من سكان ارض سحيقة نائية ، وقد قادني اليك صيت جمالك . قيل انك أبرع الممثلات واقدر النساء ، وكان الحديث عن ثرائك وغرامك واهوائك من أساطير الاولين ، تعيد الى الذهن ذكرى «رودوبيس» القديمة التي يحفظ ملاحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلب ، فاستولت على الرغبة في معرفتك ، واضطرني الى أرى الخبر يفوق الخبر ! انك اعلم واجمل الف مرة مما ذاع من علمك وجمالك ، والآن اذ اراك اقول لنفسي : « يستحيل على المرء الاقتراب منها الا ويترنح ترنح السكارى » .

كانت هذه الكلمات ملفقة ، لكن الراهب فاه بها بحرارة صادقة تحمسا للدين ، فنظرت تاييس بغير استياء الى هذا المخلوق الغريب الذي اخافها وادهشها بمنظره القبيح الوحشي ، ونظراته الكئيبة النارية ، فودت معرفة شأن هذا الرجل الذى يختلف كل الاختلاف عمن عرفتهم اجمعين .

فاجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لي أيها الاجنبي انك سريع الاعجاب بالناس ، فحذار أن تضعفك نظراتي فتبلى جسدك وتوهن العظم منك ! حذار من حبي !

فقال لها :

— انني احبك يا تاييس ! احبك اكثر من حياتي ، واحبك اكثر من نفسي ، لاجلك غادرت صحرائي على اسف ، لاجلك نطق لساني بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت ، لاجلك رأيت ما لا يصح ان اراه ، وسمعت ما حرم على سماعه ، لاجلك تبلبلت روحي ، وفتح قلبي ، وتفجرت منه العواطف والخواطر كعيون الماء الجارية التي تشرب منها الحمام ، لاجلك واصلت الليل بالنهار ساريا سائرا في مفاوز الصحارى الرملية المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش، لاجلك وطئت الافاعي والعقارب حافيا ! أجل ، اني أحبك ! احبك لا كهؤلاء الرجال الذين تضرم الشهوات ابدانهم فيتسابقون اليك كالذئاب الخاطفة او الثيران الهائجة ، لذلك انت عزيزة عليهم معزة الظبية على الاسد ، فيلتهم حبهم الشهواني روحك وجسدك ايتها المرأة ، اما انا فأحبك بالروح والحق ، احبك في الله والى ابد

الأبدين ، والشعور الذى يكنه صدرى لك هو غيرة جمة وعطف ربانى ، انني اعدك ما هو ازكى من عطر الزهر ، والذ من احلام ليل قصير ، اعدك المآدب المقدسة والافراح السماوية ، والنعيم الذى آتيك به مقيم لا يزول ، نادر لم يسمع به ، رائع لا يوصف ، واذا قدر للسعداء في هذه الدنيا ان يروا لمحة واحدة من مثله فانهم يموتون في الحال من شدة الذهول ! !

فضحكت تاييس ضحكة المتهكم المرتاب ، وقالت بخبث :

— على يا صاحبى بهذا الحب العجيب ! عجل ! فانى اعد اسهابك في القول مهانة لمحاسنى ، فلتبادر الى انتهاز الفرص ولا تضع لحظة واحدة ! اننى لا اطيق الصبر على معرفة السعادة التى تبشرنى بها ، ولكننى اصارحك القول انى اخشى ان اظل جاهلة بها ، وان تنتهى وعودك كلها لى في كلمات فقط ، فالوعد بالسعادة اسهل بكثير من منح السعادة ، كل له موهبة ، واظن موهبتك الخطابة والكلام ، انك تقول بحب مجهول ، ليت شعرى ، لقد مضى دهر طويل على تبادل القبل بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء اسرار حب لم يمط عنها اللثام ، والعاشقون يعرفون اكثر من السحرة في هذا الباب . . .

— تاييس لا تسخرى ، انى احمل اليك الحب المجهول .

— لقد اتيتنى يا صاحبى متأخرا ، فانا بكل انواع الغرام عليمة .

— الحب الذى آتيك به ملؤه المجد ، وكل حب آخر عرفته لا يتمخض الا بالعار !

فنظرت اليه تاييس بعين جامدة ، وغشى جبينها الجميل عبوسة وتقطيب ، وقالت :

— انك ايها الاجنبى جرىء للغاية ، لتحديك ربة الدار ، انظر الى وقل لى بربك هل ابدو كمخلوقة يغمرها الرجس ويطوقها العار ؟ كلا ! لست خجلة مستنكفة ، لا انا ولا كل اللاتى يعشن معيشتى ، ولو انهن قد يكن دونى جمالا ومالا ، لقد بذرت المسرة في كل خطوة خطوتها ، فذاع صيتى في العالم من اقصاه الى اقصاه فاصبحت اقوى سادة الدنيا ، الذين رأيتهم عند موطىء قدمى صاغرين ، انظر الى ! انظر الى هاتين القدمين الصغيرتين ، واعلم

انه يوجد الوف من الرجال يشترون بأرواحهم نعمة تقبيلهما ، ويبذلون دماءهم ليحظوا بهذه اللذة ، نعم ، لست وضيعة العماد او الفعل حجرا كبيرا من فراغ هذه الدنيا ، وانني ابدو كحبة ارز والناس الذين ينظرون الى من قمة السرابيوم عندما امر في الطريق ، غير ان حبة الارز هذه قد سببت للناس احزانا وآلاما وبأسا وبغضا وجرائم تكفى لتملأ اودية التتر (١) ، وبعد : الست مجنونا ايها الرجل اذ تذكر العار مع ان كل ما يحيط بى يهتف بالمجد ؟

— ان ما هو مجيد في عيون الرجال مرذول عند الله ، لقد نشأنا كلانا ، ايتها المراة ، في بلاد مختلفة ، فلا عجب ان تباينت اراؤنا واختلفت لهجاتنا ، ومع ذلك فاشهد السماء على ان مرامى الاتفاق معك ، وقصدى الا اغادرك قبلما تتوحد مشاعرنا ، من ذا الذى يوحى الى بكلمات مشتعلة تجعلك تذوبين — ايتها المراة — كالشمع تحت حرارة القابس ، وتجعل يد ارادتى تكونك كما تشاء ؟ اية قوة تسلمك الى يا ريحانة النفوس لتفطرك ثانية الروح التى تحييني الى نفسك بجمال جديد ، فتصيحين ، وانت من الفرح تبكين : « اليوم وحده يوم مولدى ! » ، من ذا الذى يجعل « اجرن معمودية القدس » ينبوعا يتفجر من صدرى حيث تجدين فيه بعد الطهر نقاءك الاول ؟ من ذا الذى يحولنى « اردن (٢) » تغمرك مياهه فتمنحك الحياة الخالدة ؟

فبدات ثائرة تاييس وقالت في نفسها :

— هذا الرجل يتكلم عن خلود الحياة ، وكان كل ما يقوله به مكتوب فوق طلسم ، فلا شك انه ساحر ، ولديه اسرار مقاومة الشيخوخة والموت .

فاعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا تظاهرت بالخوف منه ، وخطت الى الوراء مرتدة الى آخر كهف العذارى ، وجلست فوق حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتزان في رفق ولين ، ورفعت قميصها بلباقة ، لم لبثت ساكنة ، ساكتة ، لا تبدى حراكا . . تنتظر . . بعيون سبلاء .

(١) Tartarus الجحيم عند اليونانيين الاقدمين

(٢) نهر الاردن المعروف في فلسطين

وقد القت أهدابها الطويلة على الخدين ظلا خفيفا وكان مظهرها ينم عن حياء وخفر ، فشابهت بنتا تحلم وهي متكئة عند حافة غدير.

نظر اليها بافنوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبتاه المرتجفتان تقويان على حمله ، وجف لسانه في فمه ، واعتري دماغه دوي هائل ، واغشي على بصره ، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن أن يد يسوع قد القيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن لهذا العون واشتدت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

— افتظنين انك اذا وهبت نفسك لي تخفى على الله ؟

فهزت رأسها قائلة :

— الله !.. ومن ذا الذي يكرهه دائما على مراقبة كهف العذاري؟ فليتصرف عنا اذا كنا نسوؤه ! ولكن كيف نسوؤه ؟ أما وقد خلقنا ، فليس له أن يستاء أو يدهش اذا رآنا ، كما برانا وصورنا ، نفعل ونتأثر بحسب الطبيعة التي أوجدها فينا . لقد قيل عنه الشيء الكثير ، وعزي اليه ما ليس بصحيح على الاطلاق ، فهو منه براء ، وانت أيها الاجنبي ، ألك معرفة أكيدة بحقيقة أمره وجوهريته ؟ ثم من تكون أنت حتى تخاطبني باسمه !..

وعند هذا السؤال فتح الراهب قليلا حليته المستعارة ، وأبان عن ثوبه الوبري ، وقال :

— انا بافنوس ، كاهن انصنا الاكبر ، جئت من الصحراء المقدسة ، واليد التي أبعدت ابراهيم عن بلاد الكلدانيين ، ولوط عن سادوم ، هي التي فرقت بيني وبين العالم ، لقد احتجبت عن الناس ، لكن رسمك ظهر لي في مقدسي الرملي ، فعرفت أن نفسك مفعمة بالفساد ، وان كان فيك المنون ، وهانذا امامك ايتها المرأة وكانني امام جدث ، وانني أصيح بك : « انهضي يا تاييس ! » .

ولما سمعت اسم بافنوس ، وكلمتي راهب ، وكاهن أكبر ، امتقع لونها رعبا وزحفت متشابكة اليدين ، شعثاء الشعر ، الى قدمي القديس وهي تنوح ، وتتأوه قائلة :

— لا تؤذني ! ما الذي جاء بك ؟ ماذا تبغي مني ؟ لا تؤذني ؟ انا اعرف أن أولياء الصحراء يمقتون النساء اللاتي خلقن على شاكلتي متعة للرجال ، انني اخشى أن تمقتني ، وان تكون راغبا في ايذائي ،

اقترب مني ؟ انا لا يخامرني شك في مقدرتك ، لكن اعلم يا بافنوس انه ليس لك أن تحتقرني او تمقتني ، فما سخرت قط من المرأة الاختياري ، كما فعل كثير من الرجال ، فعليك بدورك الا تجعل تراني جرما . انني حسناء ، وممثلة حاذقة ، مسيرة لا مخيرة فيما انا عليه ، وقد خلقت لما انا فيه ، وولدت لافتن الرجال ، والتي نفسك قلت الآن انك احببتني ، فلا تستخدم علمك في البطش بي ، ولا تفه بكلمات السحر التي تتلف جمالي او تبدلني عمودا من الملح .. لا ترعبني ! فانني خائفة جد الخوف ، لا تجرعني كأس المنون ، فلشد ما أخاف الموت !

فأشار اليها أن تنهض ، وقال :

— هدئي روعك يا بنية ، فلن أسومك المذلة . اني اتيتك من قبل الله الذي جلس فوق حافة البئر ، وشرب من ابريق المرأة السامرية المقدم اليه (١) ، وهو الذي عندما تعشى في بيت سيمون ضمخته مريم بالعطور ، لست بلا خطيئة لارميك باول حجر ، فقد طالما اسأت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التي اسبغها علي ، ليس ثمة لغضب ، وانما هي الرحمة بك اخذت بيدي وجاءت بي الى هنا ، والحق اقول ، اني كنت قادرا على التقرب منك بكلمات الحب والهيام ، انما حرارة ايماني هي التي قادتني اليك ، انني اشتعل بنار الاحسان ، واذا كانت عيناك اللتان لم تتعودا النظر الا الى نقائص البدن وعوراته تستطيعان أن تنظرا الى الاشياء بحقيقتها الروحانية فلاظهرن اذن لك كغصن منتزع من تلك العليقة المشتعلة التي اراها الله لنبيه موسى القديم في البرية ، ليعلمه الحب الصادق ، الحب الذي يشعلنا دون ان يبلينا ، فلا يترك جمرا أو رمادا ، انما بلسما وعطرا يضمخان كل ما يتخلله الى آخر الدهر.

— انني اصدقك ، ايها الراهب ، ولست اخشى بعد خدعة منك او مضرة ، لقد طالما سمعت اخبار نساك طيبة ، والحكايات التي تقص عن حياة انطوان وبولس غريبة ، ولم يكن اسمك خافيا علي ، ولقد خبروني انك ، على حداثة سنك ، تضارع في الفضل اكبر الزاهدين ، ومع اني لا اعرف حقيقة امرك ، اشعر بانك لست رجلا

(١) يقصد به السيد المسيح

هاديا ، الا تخبرنى ، أتستطيع ان تعمل لى ما عجز عن عمله كهنة ازيس وهرمس وتوار والسحرة الكلدانيون جميعــــا ، وما لم يستطعه العرافون البابليون ؟ أيها الراهب ، اذا كنت تحبنى ، فهل تستطيع أن تحول بينى وبين الموت ؟

ــ ايتها المرأة ، أن من يرغب فى الحيـــاة يحيا ، فاعرضى عن الملذات السافلة التى تهلكين بهــا ابدا ، انتزعى جسدك الذى فطره الله من رضــابه ونفخ فيه من روحه ، انتشليه من أيدى الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه احراقا ، تعالى ايتها التى اشتاقها التعب وردى موارد الزهد المباركة ، تعالى انهلى من تلك العيون المخبوءة فى الصحراء التى تتفجر من السماء ! ايتها النفس القلقة الملهفة ، تعالى تنالى ما تشتهين ! ايها القلب الشره الطامح الى الجذل ، عليك أن تجذل حقيقة بتذوق طعم الفقر والعزلة ، وانكار الذات وتركها فى حضن الله ، يا عدوة المسيح الآن ، وياحبيبته غدا ، تعالى اليه ! تعـــالى يا من بحثت ونشدت وستقول : « هاندا قد وجدت الحب الحقيقى ! » .

وكان يلوح على تاييس انها تتفرس فى اشياء بعيدة ، فسألته :

ــ أصحيح ايها الراهب انى اذا نبذت المسرات وتبت ، أولد ثانية فى السماء سليمة الجسم موفورة الجمال ؟

ــ تاييس ، انى احمل اليك الحياة الخالدة ، فثقى بى ، لان ما أبشرك به هو الحق ..

ــ ومن يضمن لى انه الحق ؟

ــ داود ، والانبياء ، والكتب المقدسة ، والمعجزات التى سوف تشهدين ...

ــ اراني اميل الى تصديقك : ايها الراهب ، لانى اسلم بكونى لم اجد فى هذه الدنيا هناء ، كان نصيبى أعظم من نصيب ملكة ، ومع ذلك فقد صبت الحياة على رأسى صنوف الآلام والمتاعب ، وهاأنذا قــد عييت كثيرا وضقت ذرعا بوجودى ، كل النساء يحسدننى ، مع انى طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التى كانت وانا صغيرة ، تبيعنى اقراص الشهد تحت احدى بوابات المدينة ، وقد خطر لى غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء

الابرار ، وان فى هذه الحياة الوضيــعة الوديعة تعزية وسلوى ، ايها الراهب ، لقد هجت امواج حياتى ، وطفوت الى السطح تلك التى رسبت فى القــــاع ... ترى من اكون انا لاومن ؟ واسماء ! .. وما عساى ان اكون ؟ وما هى الحياة ؟..

وفى اثناء كلامها تغيرت ملامح بافنوس واضاء وجهه بفرح سماوى ، فقال :

ــ اسمعى ! اننى ما دخلت الى مسكنك وحدى ، بل صحبنى آخر ، وهو واقف هنا بجانبى ، لا تستطيعين انت رؤيته ، لان عينيك لا تزالان بعد مشاهدته ، ولكنك لا تلبثين أن تريته بجلاله وجماله ، وتقولين : « هو الجدير بالحب وحده ! » ولو لم يكن قد وضع الآن يده الناعمة فوق عينى ، يا تاييس ، فلربما كنت اقترفت معك خطيئة ، لاننى انا نفسى مثال الضعف والوهن ، ولكنه انقذنا معا ، انه صالح كما هو قدير واسمه « المخلص » ، وقد بشر الدنيا به داود والانبياء ، وسجد له الرعاة والمجوس ، وهو لا يزال فى المهد صبيا ، وقد صلبه الفريسيون ، ودفنته القديسات ، واظهره الحواريون للعالم ، وشهد به الشهداء ، وهو الذى لما علم بانك تخشين الردى ، اتى بى الى بيتك ليدفع عنك غائلة الردى ! اليس كذلك يا يسوع ! او لست تظهر لى فى هذه اللحظة كما ظهرت لاهل الجليل فى تلك الايام العجيبة ، عندما هوت معك النجوم من السموات ، وصارت قريبة من الارض بحيث تناولها الاطفــال القديسون بايديهم وهم يلعبون فى احضان امهاتهم فوق سطوح بيت لحم ! السنــا يا يسوع فى حضرتك ، وانك تظهر لنا حقيقة ناسوتك المقدس ؟ اليس ذاك وجهك ؟ او ليست العبرة التى تنحدر فوق خدك هى عبرة صادقة ؟ اجل ! ان ملاك العدل الازلى سوف يتلقاها فتكون فدية لروح تاييس ، الست هنا يا يسوع ؟ ان شفتيك المستحقتين للعبادة مفتوحتان ، انك تستطيع الكلام ، تكلم ، فكلى آذان صاغية ، وانت يا تاييس ، يا تاييس السعيدة ! اصغى لما يقوله لك المخلص نفسه ، انه يتكلم من دونى قائلا لك : بحثت عنك طويلا يا شاتى الشاردة ، وها قد وجدتك ! فلا تشردى منى بعــد الآن ، هات يديك ايتها

البنية المسكينة ، ودعيني احملك فوق كتفي الى حظيرة السموات ، تعالى يا تاييس ! تعالى يا صفيتى ! تعالى واذرق الدموع معى » .

وسقط بافنوس على ركبتيه وعيناه تنفثان ذهول الانجذاب ... ولما رات تاييس على وجهه صورة يسوع الحى ، قالت فى زفراتها :

— واها لايام طفولتى الماضية ! واها لابى الروحى احمس ! ايها القديس الصالح تيودور ، لماذا لم امت فى دثارك الابيض عندما كنت تحملنى فى مطلع الفجر ندية بماء المعمودية ؟

فوثب بافنوس نحوها صائحا :

— انت عمدت !.. يا للحكمة الربانية ! يا للعناية الالهية ! الآن عرفت القوة التي اجتذبتنى نحوك ، الآن عرفت ما صيرك هكذا عزيزة على جميلة فى عينى ! فالفضل كل الفضل لماء التعميد الذى جعلنى اترك ظل الله ، حيث كنت اسكن ، لابحث عنك فى جو العالم المسموم . لاريب ان قطرة ، قطرة من الماء الذي غسل جسدك ، قد سقطت على جبينى ، فتعالى يا اختاه وتقبلى من اخيك الروحى قبلة السلام !

ولثم الراهب جبين البغى ...

ثم سكت وترك جل القول لله ... ولم يكن يسمع فى كهف المذارى سوى زفرات تاييس ممزوجة بخرير المياه الجارية .

بكت ، ولم تكفكف عبراتها ، ولا حبست انهمارها ، فى حين دخلت جاريتان سوداوان بالثياب والعطور وتيجان الزهور .

فقالت ، وهى تحاول ان تبتسم :

— ليس البكاء من حسن الراى ، فالدموع تحمر منها العيون ، ولونها يفسد بها ، واذ انى مزمعة ان اتعشى الليلة مع بعض الاصدقاء ، اروم ان اكون فتانة ، لانه سوف يكون هنالك نساء جميلات ، فلا اريد ان يلحظن آثار الضعف على محياى ، وهاتان الجاريتان جاءتا لالباسى ، فتنح قليلا يا ابى واتركهما يفعلان ذلك ، انهما ماهرتان محنكتان وقد اشتريتهما بثمن غال ، انظر الى احداهما ذات الخواتم الذهبية الكبيرة والاسنان الجميلة ، انى غنمتها من امراة الحاكم .

ففكر بافنوس بادىء الراي فى رد تاييس بكل قواه عن الذهاب

الى هذا العشاء ، على انه آثر اخيرا ان ينصرف بفطنة فسألها عمن سيلقاه هنالك ؟

يا ولدي ! انها سترى صاحب الوليمة : الشيخ كوتا مدير البحارة البحرية ، ونسياس ، وكثيرين غيرهما من الفلاسفة والمولعين بالحوار ، والشاعر كاليكرات ، وكاهن سيرابيس الاعلى ، وبعض الشبان الاغنياء من هواة تربية الخيل ، ونساء لا يمكن ذكر شيء عنهن ، فلا فضل لهن غير الشباب ونضارته .

قال الراهب بالهام سماوى :

— اذهبي اليهم يا تاييس ! اذهبي ، بيد انى لن اتركك ... سأذهب معك الى هذه المادبة وابقى بجانبك ملازما الصمت والسكون .

فضحكت تاييس ، وصاحت والجاريتان تلبسانها حليها :

— ارى ... ماذا عسى ان يقولوا عندما يرون لى عاشقا من رهبان طيبة ؟

المأدبة

لما دخلت تاييس قاعة المأدبة ، ووراءها بافنوس ، كان اكثر المدعوين قد اجتمعوا متكئين على الارائك امام مائدة على شكل حدوة الفرس فوقها كثير من الاواني اللامعة ، وكان في وسطها حوض من الفضة ، تعلوه أربعة تماثيل منحنية بقرب يتدفق منها مرق على سمك مسلوق يسبح فيه ...

فلما اقبلت تاييس ، علا الهتاف لها من جميع الارجاء :

— سلام على ربة الحسن والبهاء !

— سلام على عروس التمثيل الصامت ، التي تعبر نظراتها عن جميع الاشياء !

— سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء !

— سلام على المشتهاة كل الاشتهاء !

— سلام على لؤلؤة « راكوتيس » !

— سلام على وردة الاسكندرية !

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء ، ثم قالت لمضيفها « كوتا » :

— لقد جئتك يا لوسيوس براهب من الصحراء ، بافنوس ، كبير كهنة انصينا ، وهو رجل قديس ، كلماته تحرق كالنار ...

فنهض « لوسيوس أوريلوس كوتا » ، قائد الاسطول ، قائلا :

— مرحبا بك يا بافنوس ، يا من يؤمن بالعقيدة المسيحية ، اني اجل بعض الاجلال دينا اصبح الآن امبراطوريا ، فقد احل قسطنطين العظيم اخوانك في الدين المحل الاول بين اصدقاء الدولة ، وحقا انه قد آن للحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحكم معبد اربابنا (١) ومما يؤثر عن آبائنا قولهم : ان في كل رب شيئا من الالوهية ،

(١) البانثيون Pantheon

لكن لندع هذا جانبا ، ولنشرب ، ونطرب ، ونروح القلب باللذات فالوقت سمح والزمان مؤات .

قال هذا وهو منشرح الصدر ، اذ كان قد فرغ من اختراع سفينة جديدة ، واتم الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن قرطاجنة ، ولوثوقه بانه لم يضع يومه سدى ، كان راضيا من نفسه ومن الآلهة .

ثم قال :

— ترى هنا يا بافنوس رجالا كثيرين جديرين بالمحبة والاحترام : هرمودور كاهن سرابيس الاعظم ، والفلاسفة دوريون ، ونسياس ، وزينوتميس ، والشاعر كاليكرات ، والفتيان شيراس واريستوبول، وهما ابنا رفيق من رفاق شبابي الاعزاء ، وبقربهما فيلنا ودروسيه ومن حقهما ان يعجب بهما كثيرا لفرط جمالهما ...

فعانق نسياس بافنوس وهمس في اذنه :

— لقد انذرتك يا اخي بما للزهرة من بأس شديد ، اليس سلطانها العنيف اللين هو الذى قادك قسرا الى هذا المكان ؟.. اسمع ، انك رجل شديد التقى ، لكنك اذا لم تسلم بانها ام الآلهة فهلاكك محتم ، واعلم ان الشيخ « ملانت Melanthus » الرياضي كان يقول : « انني لم استطع اثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزهرة » .

وكان دوريون يطيل النظر الى القادم الجديد ، وما لبث أن صفق بيديه ، وصاح صيحة الدهشة :

— انه هو يا صحب ! نظرته ، لحيته ، طيلسانه — هو بعينه ! لقيته في الملعب وكانت تاييسنا تكشف عن ذراعيها البديعتين ، فاضطرب اضطرابا شديدا ، واشهد انه تكلم بحدة وحمية ، انه رجل شريف ، وسيكون نصيبنا منه اللعنات ، فصاحته رائعة ، واذا كان ماركوس هو افلاطون المسيحيين ، فبافنوس ديموستينهم ولعمري ان ابيقور ، في حديقته الصغيرة ، لم يطرق سمعه مثل ذلك قط .

وفي تلك الاثناء ، كانت فيلنا ودروسيه تكادان تفترسان بأعينهما تاييس وقد وضعت فوق شعرها الاشقر تاجا من البنفسج الذابل،

كل زهرة منه تمثل لون حدقتيها حائلا ، حتى لاح الزهر كانه نظرات زائغة ، وبدت عيناها كزهرتين متألقتين . . .

ومما امتازت به تاييس ان كل ما عليها كان يتألق بنور الحياة وروح الانسجام . . . فكان لثنيات ثوبها الارجواني المطرز بخيوط الذهب والفضة رونق عليه مسحة من الشجن لا تعدلها الاساور والقلائد بهجة ، وكان البهاء كله في ذراعيها العاريتين .

فلم يسعهما الا الاعجاب بثوب تاييس وزينتها ، وان لم تشيرا الى ذلك بكلمة .

قالت فيلنا :

ـ يا لك من فتاة ! لم تستطيعي ان تكوني الآن اجمل منك عندما قدمت الاسكندرية ، لان امي التي رأتك حينذاك تقول انه قل من النساء من تستحق ان تشبه بك .

وسألتها دروسيه قائلة :

ـ من يكون اذن ذلك العاشق الجديد الذي جئنا به ؟ ان هيئته غريبة وحشية ، واذا كان للفيلة رعاة فلا ريب انهم يكونون على صورته ، فاين وجدت ، يا تاييس ، هذا الصاحب الوحشي ؟ لعله من سكان الكهوف والمغاور الذين يعيشون تحت الارض ملطخين بدخان سقر ؟

فوضعت فيلنا اصبعها على فم دروسيه ، وقالت :

ـ صه ! يجب ان تبقى اسرار الحب في طي الكتمان ، لان اذاعتها محرمة ! اما انا فافضل ان يقبلني فم بركان «اتنا» المدخن على ان تقبلني شفتا هذا الرجل ! لكن حبيبتنا تاييس الجميلة ، الجديرة بالعبادة كالآلهة ، عليها ان تتقبل كالآلهة دعاء جميع المتوسلين ، وليست مثلنا تأبى الغرام الا على زين الشباب .

فقالت لهما تاييس :

ـ احذرا ! انه عراف ساحر ، يسمع الهمس الضعيف ، ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، وهو قادر على ان يختطف قلبيكما اثناء نومكما ويضع بدلا منهما اسفنجتين ، حتى اذا شربتما ماء في اليوم التالي تموتان اختناقا !

ثم نظرت اليهما وقد شحب لونهما ، وطوت كشحا عنهما ،

وجلست بجانب بافنوس على اريكته .

ووقف كوتا هادر الحديث بصوته الذي في نبراته رنة الامارة ورقة الترحيب :

ـ الزموا اماكنكم ايها الاخوان ! صبوا النبيذ المعسول ايها العبد !

ثم رفع رب البيت كأسه قائلا :

ـ لنشرب اولا نخب قسطانس ، سليل الآلهة ورمز عبقرية الدولة ! يجب ان يقدم الوطن على كل شيء ، حتى على الآلهة ، لانه يأويهم في ارضه ، ويضمهم في كنفه اجمعين .

ورفع كل المدعوين كئوسهم المترعة الى شفاههم الا بافنوس ، اي واستكبر ، لان قسطانس كان يضطهد عقيدة اهل «نيقيه» ، ولان وطن المسيحي ليس في هذا العالم .

فتمتم دوريون بعد ان شرب :

ـ ما الوطن ! انه نهر جار ، ضفافه تتبدل وامواجه تتجدد على الدوام .

فاجاب قائد الاسطول :

ـ اعرف يا دوريون انك قلما ترعى جانب القوى الوطنية ، وانك تعتقد انه يجب على الحكيم ان يعيش بنجوة من الشئون العامة ، اما انا فارى ان الرجل الشريف يجب الا يتمنى اكثر من ان يشغل منصبا ساميا مسئولا في الدولة ، فما اجمل الدولة وما اجلها !

فوصل هيرمودور ، كبير كهنة سرابيس ، حبل الحديث بقوله :

ـ سأل دوريون : « ما الوطن ؟ » وجوابي على ذلك ان الوطن عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الاجداد ، فالانسان مواطن سواه بالاتحاد معه في الذكريات والاماني .

فقاطعه الشاب اريستوبول قائلا :

ـ بحق التوام الاول (١) لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديموفون

---

(١) في اساطير الاولين ان كاستر Castor هو ابن جوبيتر وليدا ، واخ التوام لبولكس Pollux . ويضرب المثل بحبهما الوثيق الذي لا انفصام له . وعندان الانسان يذكران عادة وعرضي الوداد ، رمزا للمحبة والقبول . (المترجم)

جوادا كريما ، له فك ضئيل ، وقائمتان بديعتان ، رافعا رأسه الواجف ، مزدهيا ازدهاء الديك !

فهز شيراس الفتى رأسه قائلا :

ــ انه ليس بالجواد الكريم كما تدعي ، فله حوافر دقيقة ، وعراقيبه توشك ان تمس الارض ، ولا يلبث ان يصاب بالعرج .

وكانا سيستمران في حوارهما لولا أن صرخت دروسيه صرخة عالية :

ــ آي ! كدت ابتلع حسكة اطول واحد من الخنجر ، ولحسن الحظ اخرجتها من حنجرتي قبل فوات الوقت ، ان الآلهة تحبني !

فسألها نسياس متبسما :

ــ اتقولين يا عزيزتي دروسيه ان الارباب يحبك هالمون ؟ اذن فليساهموا الناس العلل ؟ لان الحب يقضي بالشقاء الابدي على من يصاب به ، وهو دليل على الضعف ، فالحب الذي تشعر به الآلهة نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الكمال .

فاشتد غضب دروسيه لهذه الكلمات ، وقالت :

ــ ان ما قلته يا نسياس حماقة لاتستحق الجواب ، ومن طبعك الا تفهم ما يقال ، وان تقول ما لا معنى له .

فابتسم نسياس ثانية وقال :

ــ تكلمي ، تكلمي يا عزيزتي دروسيه ، لا بأس بكل ما تقولين ، فعلينا ان نشكرك كلما فتحت فاك ، فما ابهى ثناياك !

***

وعندئذ دخل البهو شيخ وقور ، مهمل اللباس ، متئد الخطا ، عالي الراس ، ونفض المكان بنظره محدقا في الحاضرين بسكون ، فاشار اليه كوتا ليجلس بجانبه فوق اريكته قائلا :

ــ اهلا بك وسهلا يابوكريت ! هل من رسالة فلسفية جديدة كتبتها هذا الشهر ؟ ستكون ، اذا صح حسابي ، الثانية والتسعين التي خطتها قصبتك النيلية بيدك الاثيمة ..!

فاجاب بوكريت ، وهو يعبث بلحيته الفضية :

ــ ان الهزار خلق ليشدو ، وخلقت لاحمد الارباب الخالدين (١)

(١) هذه الجملة من اقوال الفيلسوف الرواقي (Epictète) ابكتيتوس اي **

دوريون (Dorion) :

لنحيي باحترام ، في شخص بوكريت ، آخر الرواقيين ، انه وقور رزين ، يقوم في وسطنا مكللا بجلال المشيب ، كصورة الاسلاف ! تراه بين الجماهير منفردا ، يفوه بعبارات غير مفهومة .

بوكريت (Eucritus) :

هذا خطأ منك يادوريون ، ففلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا العالم ، وان لي اتباعا كثيرين في الاسكندرية وروما والقسطنطينية ، سواء من العبيد الارقاء او اعضاء الاسرة القيصرية ، يعرفون الآن كيف يحكمون انفسهم ويعيشون احرارا ، وهم بعدم اكتراثهم لشيء سعداء كل السعادة ، كثيرون يحيا فيهم « ابكتيتوس » و « ماركوس اوريليوس » (١) ، لكن اذا صح ان الفضيلة قد افلتت جذورها من الارض الى الابد ، ففي اي شيء يعنيني خسارتها ، ما دام بقاؤها وعدمها لا يتعلقان بي ؟ ان الحمقى يا دوريون ، هم وحدهم الذين يقفون سعادتهم على ما تنقطع دونه ايديهم ، التي لا اشتهي ما لا تشاؤه الالهة ، واشتهي كل ما تشاؤه ، بهذا اصبحت مثلهم اشاركهم في سرائهم المحققة ، فاذا ماتت الفضيلة رضيت بموتها ، وملأني هذا الرضاء سرورا ، كالمجهود الاعلى لعقلي وشجاعتي ، ولسوف تتشبه حكمتي في جميع الامور بالحكمة الالهية ، فتأتي الصورة اعز من الاصل ، لانها تكلف شيئا كثيرا من العناية ، وكثيرا جدا من المجهود .

** العبد الاسير ، الذي ولد في الجيل الاول للميلاد بمدينة هيرابوليس بمصر ، واتى يوما في عهد نيرون تابعا لابافرودت (Epaphrodite) احد رجال الحاشية الرومانية ، فعرف بهذا الاسم ، وخلاصة آرائه احتقار اللذة ، ونصرة الفضيلة ، وحب البشرية ، وتمجيد الله . وان العلم بغير العمل لا قيمة له ، وانه لا بد مما ليس منه بد . وله في ذلك كلمة مشهورة : « احتمل وامتنع » . ومما يروى عنه ان سيده القاسي لوى يوما ساقه في اداة تعذيب ، فقال له ابكتيتوس بهدوء : « ستكسرها ! » فلما تحقق حدسه ، وكسرت رجله ، صرخ بأن ختم جملته بقوله : « الم اقل لك ذلك ؟ » (المترجم)

(١) Marc-Aurèle عاهل الدولة الرومانية (١٦١ ــ ١٨٠ ق . م) وهو امبراطورها ، ومن احسن ارباب السيف والقلم ، عرف بحكمته الرواقية الخالصة واعتداله الشديد وأدبه الوفير ، تشير كتابه الخالد « افكار » الى زبدة آرائه السامية التي تعد القواعد الادبية للفلسفة الرواقية . (المترجم)

نسياس (Nicias) :

لعلى فاهم ما ترمى اليه ، انك تضع نفسك فى مستوى العناية الالهية ، لكن اذا كانت الفضيلة تنحصر فى الجهود وحده يايوكريت ، وفى ذلك الاجهاد الذى به يزعم تلاميذ « زينون » (١) انهم يجعلون ذواتهم اشباها للالهة ، فالضفدعة التى تنتفخ لتصير ضخمة كالعجل تؤدى اكبر عمل من اعمال الرواقيين .

يوكريت (Eucritus) :

اراك تسخر يا نسياس ، وقد برعت كعادتك فى تهكمك ، ولكن اذا كان العجل الذى ذكرته الها حقيقيا كابيس ، او كالثور الذى تحت الارض ــ الذى ارى هنا كاهنه الاكبر ــ واذا كانت الضفدعة تثقف وترى الحكمة فتنجح فى مضارعته ، الا تكون فى الحقيقة افضل من العجل ! وهل يسعك الا الاعجاب بحيوان صغير كهذا ، اوتى مثل هذا الفضل العظيم !

ووضع اربعة من الخدم فوق المائدة علوفا (٢) مغطى بهلبه ، وخنانيص مصنوعة من الفطير احاطت بالحيوان كأنها تريد ان ترضعه ، اشارة الى انه انثى .

فاتجه زينوتميس نحو الراهب قائلا :

ــ قد جاءنا ايها الاصدقاء ضيف من تلقاء نفسه ! واعنى به بافنوس العظيم الذى يحيا فى التنسك هذه الحياة الغريبة ، فهو ضيفنا غير المنتظر .

كوتا (Cotta) :

قل خيرا من هذا يا زينوتميس ، قل ان له صدر المكان لانه قد اتى بغير دعوة .

---

(١) Zénon هو الفيلسوف اليونانى المشهور ولد فى سيتيوم بجزيرة قبرص واسس المذهب الرواقى Stoïcisme الذى يرى فى العقل الالهى المنظم الاعظم لجميع الكائنات . وان سعادة الانسان فى العمل واجهاد النفس . وقد اسس مدرسته فى اثينا برواق باسيل . فاطلق عليه وعلى تلاميذه « الرواقيون » وان على مذهب ابى العلاء ، طيب الله ثراه ، يرى انها : (تعب كلها الحياة) ، لذلك لما احس بالشيخوخة تدب فى جسده ، وضع حدا لحياته بالانتحار ــ ٢٦٣ ق م (المترجم)

(٢) العلوف : الخنزير البرى

زينوتميس (Zenothemis) :

لزمنا ايضا يا عزيزى لوسيوس ، مبالغة فى اكرامه ، ان نتوخى ذكر ما يطيب له سماعه ، وعلى ذلك ، فبقينا ان رجلا مثله اقل تلذذا بتوابل اللحوم منه بعطر الافكار الجميلة ، ولاريب فى اننا ندخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث الى عقيدة المسيح المصلوب التى اعتنقها ، اما انا فاقدم نفسى للحوار عن طيب خاطر ، لان هذه العقيدة تلذ لى كثيرا لاختلاف رموزها وتباين كناياتها ، واذا كان ما نقرؤه عنها يدل حقيقة على روح هذا الدين ، فهو اذن دين ملؤه الحقائق ، وارى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحى الالهى ، على انى لا يمكننى يا بافنوس ان اسوى بينها وبين كتب اليهود التى لم تلهم ، كما يدعى ، من روح الله بل من روح جن ، فان « يهوه » (١) الذى املاها هو احد تلك الارواح التى تعمر الطبقات الجوية السفلى ، ويبعث بالجانب الاكبر من الامراض التى تفتك بنا ، غير انه يبزها جميعا فى الجهالة والقسوة ، على النقيض من ذلك الثعبان ذى الاجنحة الذهبية الذى لف طياته اللازوردية على شجرة المعرفة ، فقد كان مخلوقا من النور والحب ، فلم يكن ثمة بد من المنازلة بين هاتين القوتين ــ هذه القوة النيرة وتلك القوة المظلمة ــ وقد وقع ذلك النزاع بعد خلق الدنيا ، اذ دبر « يهوه » ــ لسوء حظ آدم وحواء ، وهما اول رجل وامراة كانا يعيشان عاريين سعيدين فى جنة عدن ــ وسيلة للسيطرة عليهما وعلى جميع ذريتهما ، ولما لم يكن فى حوزته فرجار او قيثارة ، وكان كذلك جاهلا بالعلم الذى له السلطان ، وبالفن الذى يستميل القلوب ، فقد روع هذين الساذجين المسكينين باشباح مخيفة ، وتهديدات تخيلية ، ورعود وبروق ، وصواعق ؛ ولما احس آدم وحواء بظله فوق رأسيهما ، التصق كل منهما بالآخر وضاعف الخوف حبيهما ، فاشفق الثعبان الحكيم عليهما ، ورأى ان يثقفهما بالعلم حتى لا تضللهما الخرافات والاكاذيب ، وتطلب هذا المسعى فطنة نادرة وحزما فائقا ، بيد ان الشيطان الكريم الصادق النية تلاق الامر بحكمته ، فاقترب منهما بغير علم يهوه ــ الذى كان يدعى رؤية كل شىء ، وكان فى الحقيقة قصير النظر ــ وجذب بصرهما بأبهة درعه وبريق اجنحته ،

---

(١) ــ Iaveh ــ Jehovah) يهوه ــ الثالث الاسمى)

ثم روض عقليهما بأن رسم امامهما ، بجسمه ، اشكالا متقنة ، كالدائرة والاهليلج والحلزون ، التى عرف الاغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين ؛ فعنى آدم بالتامل فى هذه الاشكال الهندسية أكثر من حواء ، لكن لما بدأ الثعبان يتكلم ويعلمها اسمى الحقائق ، تلك التى لا يمكن التدليل عليها ، وجد ان آدم المخلوق من طين ذا طبيعة أكثف جدا من أن تجعله يدرك تلك العلوم الدقيقة ، وان حواء ، بالضد ، قد استطاعت فهمها بسهولة لكونها أرق قلبا وادق احساسا ؛ لذلك حدثها وهى وحدها ، فى غياب زوجها ، لتكون اول من يطلع على ...

دوريون :

— اغتفر مقاطعتى لك يا زينوتميس ، لقد تبينت اول الامر من الخرافة التى قصصتها علينا احدى وقائع الصراع بين « بالاس اثينا » (١) والجبابرة ، ولعمرى ان يهوه لشبيه جد الشبه « تيفون » (٢) والاثينيون يمثلون « بالاس » والى جانبها ثعبان ، بيد ان ما قلته الآن جعلنى أشك فجأة فى ذكاء الثعبان الذى تذكر وفى اخلاصه ، فلو صح انه اوتى الحكمة ، افتراه يودعها راس انثى صغير الحجم لا يقدر أن يسعها لا أوثر أن أعتقد انه كان مثل يهوه جاهلا كذابا ، واختار حواء لانها أسهل انخداعا ، ولانه توسم فى آدم ذكاء وبصيرة .

زينوتميس :

اعلم يا دوريون ان اسمى الحقائق وافضلها لا يدرك بالبصيرة والذكاء ، بل بالحس والشعور ، ولهذا ترى النساء بوجه عام اقل ادراكا من الرجال ، ولكنهن ادق منهم احساسا ، فيصلن بسهولة الى قمة المعرفة بالمسائل الالهية ، ولهن موهبة الرجم بالغيب ، والى لاستصوب تمثيل « ابولو » (٣) العازف بقيثارته ، ويسوع الناصرى مرتدين كالنساء ثيابا فضفاضة ، ومهما يكن رأيك يا دوريون فالثعبان الذى هدى حواء كان حكيما لتفضيله ، فى عمله الروائى ، حواء التى هى انصع بياضا من الحليب والكواكب ،

(١) Pallas Athénè هى الهة الحكمة عند الاغريق .
(٢) اله الشر والجدب والظلام عند قدماء المصريين .
(٣) اله الشعر والفنون عند اليونان والرومان .

على آدم الثقيل الظل ! فقد صغت اليه طوعا ، وانقادت الى شجرة المعرفة التى تمتد فروعها الى السماء ، والتى بللها الروح القدس كالندى ، كانت هذه الشجرة يانعة باوراق تنطق بالسنة الشعوب المقبلة ، وتؤلف اصواتها المجتمعة موسيقى كاملة ، وكانت اثمارها الزاهرة تغذى المهتدين وتعلمهم الاسماء كلها ، من معادن واحجار ونبات ، وقوانين الطبيعة والخلق ، ولكنها كانت لهيبا لا يجرؤ الذين يخشون الالم والموت على ادنائها من شفاههم ، اما حواء فبعد ان صغت بانتباه الى دروس الثعبان ، تحررت ورفعت نفسها من مستوى المخاوف الفارغة ، واشتهت ان تذوق الثمار التى تؤدى الى معرفة الله ، لكنها كانت تحب آدم فلم تشأ أن يكون دونها ، فاخذت بيده وقادته الى الشجرة العجيبة ، وقطفت تفاحة ملتهبة واكلت منها ثم قدمتها الى رفيقها ، ولكن ساء حظهما اذ باغتهما يهوه ، وكان يتنزه متمشيا فى الجنة ، فلما رأى انهما قد علما ما كان مجهولا لديهما ، تملكه غضب عظيم ، وكانت غيرته شر ما يتقى فاستجمع قواه واحدث فى الجو السفلى ضجة جزع من هولها ذانك المسكينان الضعيفان ، فافلتت الثمرة من يد الرجل ، اما المراة فقد تعلقت بعنقه وقالت : « اريد أن أقاسمك الجهل والالم ! » فلما انتصر يهوه ابقى آدم وحواء وذريتهما فى ذهول وفزع ، وفازت صناعته التى لم تكن تتعدى خلق الشهب الغليظة ، وفاقت علم الثعبان الذى كان موسيقارا ومهندسا ، فعلم الناس الظلم والجهل والقسوة ، ومكن للشر فى الارض ، طارد قابيل ونسله لانهم كانوا أهل جد وعمل ، وآخذ الفلسطينيين بشعرهم الاورق ومواعظهم العيسوية فافناهم على بكرة ابيهم ، ثم صار للعلم والجمال عدوا لا يبرد غله ، وقد ظل النوع الانسانى قرونا متعاقبة غارقا فى بحار من الدموع والدماء تكفيرا لهزيمة الثعبان المجنح ، وكان بين الاغريق ، لحسن الحظ ، دعاة مثل فيثاغورس وافلاطون ، فادركوا بقوة عبقريتهم الاشكال والافكار التى حاول عدو يهوه عبثا تعليمها للمراة الاولى ، كانت روح الثعبان فيهم ولذلك كرم الاثينيون صورته كما قال دوريون ، واخيرا ، ظهرت ثلاثة ارواح علوية باشكال بشرية : يسوع الجليلى ، وبازيليد ، وفالنتان ، وقد انعم عليهم باجتناء افضل الثمار من شجرة المعرفة التى غارت جذورها

في بطن الارض وارتفعت قمتها الى عنان السماء ؛ وهذا ما شئت ان اقوله انتقاما للمسيحيين الذين كثيرا ما تنسب اليهم اغلاط اليهود .

دوريون :

اذا كنت وعيت ما قلته يا زينوتميس من ان الرجال الثلاثة الجديرين بالاعجاب — يسوع وبازيليد وفالنتان — قد اكتشفوا اسرارا كانت خافية على فيثاغورس وافلاطون وجميع فلاسفة اليونان ، حتى على ابيقور الالهي (١) الذي حرر الانسان من سائر المخاوف الباطلة ؛ فيكون لك الفضل ان انت انبأتنا بأية وسيلة احرز هؤلاء الثلاثة الزائلون المعارف التي غابت عن حكمة الحكماء .

زينوتميس :

وهل انا بحاجة الى ان اكرر على سمعك يا دوريون ان العلم والتأمل ليسا سوى الدرجة الاولى من المعرفة ؛ وان الانجذاب وحده هو الذي يوصل الانسان الى الحقائق الازلية ؟

هيرمودور (Hermodorus) :

صحيح يا زينوتميس ان الروح تغتذي بهذا الانجذاب كما يغتذي الجندب بالندى ، وزد على ذلك ان العقل وحده هو الصالح لتجلي الجذب ؛ لان الانسان يتألف من طبيعة ثلاثية : جسد مادي ، وروح ارق منه وان كانت مادية مثله ، ثم عقل غير قابل للفناء ؛ وعندما يصعد العقل من الجسد — الذي يصبح بعده كقصر هجره صاحبه بغتة فصار نهب الصمت والوحشة — ويحلق في جنات الروح ، ويندمج في ذات الله ... يتذوق العقل لذات موت متقد ، او بالحرى حياة آتية ، فما الموت الا الحياة ؛ وفي هذه الحالة — حالة الاتصال بالذات العلية والاشتراك في الصفاء الالهي — يفوز العقل بمسرات لا نهاية لها وبمعرفة مطلقة ، فيدخل الوحدة التي هي الكل فيكون كاملا .

(١) Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢ — ٢٧١ ق . م) يحتمل انه ولد في ساموس . يرى في اللذة الخير كله ، وانه يجب ان توجه كل مجهوداتنا في سبيل الحصول عليها . لكنه يفرقها من الحواس ، ويرى في لذة الجسد العقاب والالم ، ويقول بلذة العقل وتنقيته وممارسة الفضيلة . ويرى في ذلك السعادة وهي غاية الحياة . لكن مذهبه تحدر وتدهور من بعد ذلك الى مكتبي الرغائب العالية النبيلة لكل مذهب من المذاهب السامية التي يقضي عليها ضعف الانسان . (المترجم)

نسياس :

هذا حري بالاعجاب ، لكن الحق اقول يا هيرمودور انى لا ارى فرقا كبيرا بين « الكل » و « العدم » حتى الكلمات تبدو عاجزة من التمييز بينهما ، فغير المتناهي يلوح ، الى درجة رائعة ، انه عبارة عن لا شيء ، كلاهما بعيد التصور ، ومن رأيي ان الكمال يكلف كثيرا جدا ، فقد يكلف الانسان حياته كلها ، وعلى المرء لكيما يحظى به ان يتفانى ، وهي تكبة لم ينج منها احد حتى آلى الفلاسفة على انفسهم تأليه الكمال وتكميل الآلهة ، وبعد : فاذا كنا لا نعرف غير الكائن فنحن جاهلون كذلك ما يكون ، انا لاندري شيئا ... تقولون ان تفاهم الناس فيما بينهم محال ، ويبدو لي ، على رغم ضوضاء التنازع بيننا ، انه يستحيل عليهم الا يتفقوا في نهاية الامر ، وقد دفنوا جنبا الى جنب ، مغمورين باكوام من المتناقضات التي هالوها هم انفسهم فوق انفسهم مثل بليون فوق اوسا (١) .

كوتا :

احب الفلسفة حبا جما ، وامارسها في اوقات فراغي ، لكنني لا افهمها جيدا الا في كتب شيشرون .
يا ايها العبيد صبوا السلافة المعسولة !

كاليكرات (Callicrates) :

ان هذا لشيء عجاب ! قبلما اذوق الطعام اذكر ايام كان الشعراء يجلسون على موائد الجبابرة الطيبين فيسيل لعابي ، لكنني وقد ذقت الرحيق المختوم الذي سكبته لنا بسخاء يا لوسيوس الكريم ، لم احلم بسوى الجهاد المدني ، والعراك الحماسي ، واني لاستحيي ان اعيش في زمن كهذا لا مجد فيه ، انني استوحي الحرية ، واسفك دمي ، في الخيال ، مع آخر الرومانيين في ساحات فيليب .

كوتا :

مات اجدادي عند سقوط الجمهورية مع بروتس في سبيل

(١) في اساطير الاولين ان Pélion واوسا Ossa جبلان متجاوران في تساليا ، فلما ثار الجبابرة على الاله جوبيتر ، وارادوا ان يرقوا اسباب السماء ، كوموا بليون فوق اوسا فضربت مثلا للمشكلات اذا زادت الامر لبجة ، والصعوبات اذا قامت ضغثا على ابالة (المترجم)

الحرية ، ولكن عندى أن ما دعاه الشعب الرومانى « حرية » لم يكن فى الحقيقة سوى حق حكم نفسه بنفسه ، لا انكر ان الحرية قد تكون خير النعم لامة ، واجدى ما تناله من العطايا ، لكن كلما طال عمرى زدت اقتناعا بان الحكومة القوية ، ذات الحول والطول ، هى وحدها التى تستطيع ان تضمنها لرعاياها ، لقد قضيت اربعين عاما شاغلا اعظم مناصب الدولة ، ودلتنى تجاربى الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية ، فكل الذين يسعون ، مثل السواد الاعظم من الفصحاء ، فى اضعاف كيان الحكومة ، يقترفون جرما شنيعا ، وقد تتخذ ارادة الحاكم المطلق حينا مظهرا مشئوما ، لكن السعى الى رضا الشعب يجعل الحزم والعزم فى الحكم مستحيلا ، وقبل ان يغمر العالم بجلالة السلم الرومانى ، لم تسعد الشعوب الا بحكم مستبد مستنير .

هيرمودور :

اما انا يا لوسيوس فاظن انه لا يوجد مثال صالح للحكم ، وان يوجد ، اذ ان اليونانيين الالباء الذين وفقوا الى ادراك اشكال صالحة لمختلف الشئون ، حاولوا عبثا ايجاد الحكومة التى ينشدونها من هذا القبيل ، لذلك كان كل امل من هذه الوجهة خائبا سلفا ، ولقد استدللنا من علامات خاصة على ان الدنيا اشرفت على الغرق فى الجهالة والوحشية ، وقدر لنا يا لوسيوس أن نشهد احتضار المدنية المروع ، ولم يبق لنا من كل الترضيات التى فازت بها الزكانة والعلم والفضيلة الا الفرح القاسى .. الا ارتقاب الموت مستسلمين .

كوتا :

حقا ان جوع البشر وعتو المتوحشين آفتان مخيفتان ، غير انه باسطول عظيم ، وجيش عرمرم ، ومال وفير ...

هيرمودور :

ما فائدة اغترارنا بانفسنا ؟ ان الامبراطورية المضمحلة سوف تقدم لقمة سائغة للهمج ، والمدن التى شاد صروحها الخلق الهيلينى والاناة اللاتينية لن تلبث أن تصير نهبا للمتوحشين السكارى ، ولن يبقى على وجه الارض فن ولا حكمة ، ستقلب

صور الارباب فى المعابد ، وتنعكس فى القلوب ، وسيكون فى هذا ظلام العقل وفناء العالم ، وكيف نصدق ان «الـرمانيين» سيقومون يوما ما باعمال نابهة ، او ان « الجرمان » سيزاولون الموسيقى والفلسفة ، او ان « الكاش » و « الركومان » سيعبدون الارباب الخالدين ؟ كلا ! لقد مال ميزان كل شىء وتهدم ، وهذه مصر العريقة فى القدم ، التى كانت مهد العالم ستصير لحده ، وسيتلقى سيرابيس — اله الموت — اسنى تعبدات الاحياء ، وساكون انا آخر كاهن لآخر اله ...

***

فى تلك اللحظة رفع السجوف الوشاة مخلوق غريب ، فراى الضيوف امامهم رجلا ضئيل الجسم ، احدب الظهر ، له جمجمة مفلطحة صلعاء ، وكان يرتدى جلبابا ازرق على الزى الاسيوى ، ويلبس كالهمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية ، فلما رآه بافنوس عرف انه ماركوس اريوس (١) ، فرفع يديه فوق راسه خشية انقضاض صاعقة من السماء ، وامتقع لونه رعبا ، ففى وليمة الشياطين هذه لم تستطع تجديفات الوثنيين ولا ترهات الفلاسفة الخاطئين ان تفت فى عضده او توهن من جلده ، ولكن اصابه بذلك مجرد حضور هذا الكافر ، فحدثته نفسه بالفرار ... على انه عندما التقى نظره ونظر تاييس ، اطمأن وسكن روعه ، اذ قرأ روح المحباة وادرك انها — وهى توشك ان تصبح قديسة — قد اسلبت عليه ستر حمايتها ، فامسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض ، وناجى المسيح مخلص البشر .

رحب المدعوون بوصول من يدعى « افلاطون المسيحيين » ، وخاطبه هيرمودور اولا بقوله :

— اى ماركوس النابه الذكر ! اننا نبتهج جميعا برؤيتك بيننا ، وقد وافيتنا فى الوقت المناسب ، نحن لا نعلم من تعاليم المسيحيين الا ما يرضون باذاعته وحاشى لفيلسوف مثلك أن يرتأى ما يرتئيه الدهماء ، لذلك ترانا متلهفين للوقوف على رايك فى الاسرار الكبرى

(١) Arius كاهن اسكندرى (٢٨٠ — ٣٣٦) مؤسس المذهب الاريوسى الهرطوقى (الناشر)

العقيدة التي تنتحلها . وقد كان عزيزنا زينوتميس ، وهو كما تعلم شغف بتفسير الرموز ، يسأل الآن النابه باقتوس عن كتب اليهود، غير ان باقتوس لم يحر جوابا ، ولا غرو فقد نذر شيخنا الصمت ، وختم الله على فمه في الصحراء ، اما انت يا ماركوس ، يا من دوى صوته في المجامع الاكليروسية ، واعتلى المنابر في مجلس قسطنطين الالهي ، فتستطيع – اذا شئت – أن تنقع غلتنا وتبلغنا امنيتنا بان تطلعنا على الحقائق الفلسفية المخبوءة في اساطير المسيحيين ، أو ليس اولى هذه الحقائق هي وجود اله واحد لا شريك له ، اومن به ايمانا ثابتا ؟

ماركوس (Marcus) :

اجل ايها الاخوان الموقرون ، انى اومن بواحد احد ، لم يولد ، فرد صمد ، مبدع لجميع الكائنات .

نسياس :

نحن تعلم يا ماركوس ان ربك خلق الدنيا ، وكان لهذا الخلق ، بالتأكيد ، شأن يذكر في وجوده ، وكان موجودا منذ الازل قبل أن تصح عزيمته على خلقها ، لكن لابد لى من التسليم – احقاقا للحق – بان موقفه كان حرجا جدا ، فقد كان عليه أن يظل بلا عمل ليظل كاملا ، وكان عليه ان يعمل اذا شاء أن يبرهن لنفسه على وجوده ، اراك تؤكد لى ان رأيه كان قد استقر على أن يعمل، وانى لواثق بما تقول ، وان كان هذا بعد من قبل اله كامل اقضاء لا يغتفر ، والآن خبرنا يا ماركوس كيف شرع في خلق الدنيا ؟

ماركوس :

ان الذين اوتوا الحكمة وجوهر المعرفة مثل هيرمودور وزينوتميس، يعلمون ، وان لم يكونوا مسيحيين ، ان الله لم يخلق العالم مباشرة وبغير واسطة ، فقد اتخذ له ولدا واحدا هو الذى بأمره صنعت جميع الكائنات .

هيرمودور :

صدقت يا ماركوس ، وهذا الولد قد عبد باسماء « هرمس » و « ميترا » و « ادونيس » و « ابولو » و « يسوع » .

ماركوس :

لا اكون مسيحيا اذا اطلقت عليه اسما غير « يسوع » و« المسيح » و « المخلص » ، انه حقا ابن الله ، لكنه ليس بازلى ، اذ ان له بداءة ، اما القول بانه وجد قبلما يولد ، فذلك سخف يجب ان يترك لبغال « نيسيه » ، وللحمار الحرون الذى حكم كنيسة الاسكندرية زمنا طويلا باسم اثناسيوس اللعين .

وكان باقتوس قد شحب لسماعه هذا التجديف ، واغرقه الالم في لجة من عرقه ، فرسم علامة الصليب ولازم صمته السامى ، ومضى ماركوس في حديثه :

– من المعلوم ان مجمع « نيسيه » الاكليروسى القذر ، قد تهجم على جلاله ، عز شأنه ، بارغامه على تقسيم صفاته – التى لا تتجزأ بينه وبين الشفيع الذى بواسطته صنعت كافة الموجودات ...

يا نسياس كف عن تهكمك باله المسيحيين الحق ! واعلم انه جل شأنه كزنابق الحقل ، لا يعمل ولا يغزل ، لم يكن هو الصانع بل كان ولده الوحيد يسوع الذى خلق الدنيا ، وبعد ذلك انى سبحانه ليصلح عمله ، لان الخليقة لم تكن كاملة ، وكان الشر حتما قد امتزج فيها بالخير .

نسياس :

ما الخير ؟ وما الشر ؟

***

مرت فترة سكوت ، عرض فيها هيرمودور ، وذراعاه مبسوطتان فوق غطاء المائدة ، اناءا صغيرة من معدن قورنثى تحمل سلتين ، في احدهما زيتونا اخضر وفي الآخر زيتونا اسود ، وقال :

– انظروا الى هذا الزيتون ، فاننا نرتاح الى تخالف لونيه ، ويروقنا أن احدهما اخضر والآخر اسود ، لكن لو وهب الفكر والنطق والمعرفة ، لقال الاخضر : « خير للزيتون أن يكون اخضر ، وبئس الزيتون الاسود ، ولكان قوم الزيتون الاسود ينفرون من قوم الزيتون الاخضر ، اما نحن فحكمنا اعدل من حكمهم ، لاننا فوقهم ، بقدر سمو الآلهة فوقنا ، فالانسان يرى جانبا واحدا من كل شيء ، فيبصر الشر شرا ، والله يحيط بكل شيء علما ، فيرى

فى الشر خيرا ، ان القبح بلا شك قبيح لا جميل ، لكن لو كان كل شىء جميلا ، لما ظهر كل شىء جميلا ، والحسن يظهر حسنه الضد ...

فلا بأس اذن من ان يكون هناك شر ، كالذى انشــه افلاطون الثانى بما يفوق سميه الأول .

يوكريت :

لنقل قولا الى الفضيــلة اقرب ، الشر شر ، لا للعالم الذى لا يخل نظامه المنزه عن الاضطراب ، وانما هو شر بالنسبة للشرير الذى يقترفه ، وكان بوسعه ان يجتنبه .

كوتا :

وحق جوبيتر ! ان هذا عين الصواب !

يوكريت :

العالم مأساة شاعر مجيد ، والله الذى الفها قد جعل لكل منا دورا يمثله فيها ، فاذا شاء ان تكون سائلا او اميرا او اعرج .. فابذل اقصى جهدك فى اجادة تمثيل دورك !

تسياس :

اجل !.. ويجمل بأعرج المأساة ان يعرج مثل «هيفستوس» ، وبالمجنون ان يستسلم لهياج « اجاكس » ، وبالزانيــة بمحرم ان تجدد جرائم فيدروس ، وبالغادر ان يخون ، وبالخادع ان يكذب ، وبالقاتل ان يذبح . وعندما يتم تمثيل الرواية فكل الممثلين ــ الملوك والعدول ، والطغاة السفاكين ، والعذارى الطاهرات ، والزوجات الفاسقات ، والقتلة الانذال ، واهل البلاد ذوى الهمم الشماء ــ هؤلاء كلهم ينالون انصبة متساوية من الثناء !

يوكريت :

انك تشوش فكري يا تسياس ، وتحول الغادة الحسناء الى غول بشع ! انى ارثى لجهلك بطبيعة الآلهة ، والعدل السماوى والشرائع الازلية .

زينوتميس :

اما انا يا صحب فاومن بحقيقة الخير والشر ، لكننى ايقنت انه ما من عمل بشرى ، حتى قبلة يهوذا ، الا وفيه بذرة الفداء ،

الشر عون على نجاة الناس نجاة نهائية ، وفى هــذا يصدر عن الخير وله نصيبه فى الجزاء المتعلق بالخير ، وهو ما يشبــه المسيحيون بينا شائقا فى اسطورة الرجل ذي الشــعر الاحمر الذى لكى يخدع مولاه منحه قبلة السلام ، وأكد فعله خلاص الناس ، كذلك ما من شىء ، فى رأيى ، اشد تناهيا فى الشطط من الضغينة التى يها طارد بعض اتباع « بولس الخيام » اتعس حواريي المسيح ، وفاتهم ان قبلة « الاسخريوطى » التى تنبأ بها المسيح نفسه ، كانت ضرورية بحسب عقيدتهم ، لفداء البشر ، وانه لو لم يقبل يهوذا السفط ذا الثلاثين من الفضة ، لكانت الحكمة الالهية فرية ، تضلل الذات العلية ، وتعكس اغراضها ، وتسلم الدنيــا للشر والجهل والفناء ...

ماركوس :

ســبق فى علم الحكمة الالهية ان يهوذا كان مخيرا فى الا يسلم سيده ، ومع ذلك سلمه ، وهكذا استخدمت جريمة الاسخريوطى كحجر فى بناء صرح الفداء العجيب .

زينوتميس :

كلمتك الآن يا ماركوس كمن يصدق ان نجاة الناس تمت على يد المسيح المصلوب ، لعلمى ان هــذا هو اعتقاد المسيحيين ، وقد ادركت ما يجول بخواطرهم ليكون فى تمام وسعى ان اكشف عن خطأ اولئك الذين يعتقدون هلاك يهوذا الابدى ، وارى ان يسوع هو فى الحقيقة الهشير بازليد وفالنتان ، اما من جهة سر الفــداء ، فساخبركم ايها الاصدقاء الاعزاء ، مع قلة شوقكم الى السماع ، كيف تم ــ فى الواقع ــ على الارض .

فأشار المدعوون بالقبول .

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة ، سريعات الخطا ، على الحان ناى خفى ، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح ، مثل العذارى الاثينيات بسلال الحصيد المقدسة ، فوضعن السلال فوق المائدة ، وانقطعت انغام الناى ، وقال زينوتميس :

ــ لما خلقت « ايونيا » اي « فكرة الله » العالم ، عهدت بحكومة الارض الى الملائكة ، لكنهم لم يحتفظوا بالرزانة اللائقة بالحكام ،

فانهم لما راوا بنات الناس فاتنات ، باغتوهن فى المساء عند عيون المياه ، واجتمعوا بهن ، فتولد جنس شرس ملأ الارض بغيا وعتوا ، حتى ارتوت اتربة الطرقات من دماء الابرياء ، ولما رأت « ايونيا » هذا ، نالها حزن لا يوصف ، فاتجهت الى الدنيا ، وتنهدت قائلة :

ـ هذا ما قدمت يداي ! ان اطفالى المساكين غارقون فى حياة مزرية ، والذنب ذنبي ، انهم يتوجعون بجريمتي واريد ان اكفر عنها ، الله نفسه ، الذى لا يفكر الا بواسطتى ، لا يستطيع ان يرد اليهم طهارتهم الاولى ، سبق السيف العذل ، وسوف تبقى الخليقة ناقصة حتى الابد ، واقل ما استطيعه الا اتخلى عن مخلوقاتي ،

فاذا لم استطع اسعادهم مثلى ، فانني اقدر على مقاسمتهم شقاءهم ، وبما انني اخطات اذ وهبت لهم اجسادا تذلهم ، فلأتخذن انا الاخرى جسدا كاجسادهم ، واذهب لاعيش بينهم »

ثم هبطت الى الارض واتصلت برحم امراة ارجوسية حيث تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة ، وسميت « هيلانة » ، وسخرت فى اعمال الحياة ، بيد انها ما عتمت ان ترعرعت فى حسن وجمال

وصارت اعز من يشتهى من النساء ، وكانت قد اعتزمت أن تمتحن جسمانها الفانى باذنى الخطايا ، فبذلت نفسها للزناة الشرسين كفارة عن كل فسق وشراسة ومظلمة ، وسببت بجمالها دمار الشعوب

حتى يعفو الله عن جرائم الكون ، ولن تكون « ايونيا » قط ، او بالحري الفكرة السماوية ، مستحقة العبادة كما كانت فى تلك الايام التى اباحت ، كامراة ، عرضها للابطال والرعاة .

تخيل الشعراء الوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسمو والفتك ، وعندما وجهوا الدعاء لها ، قائلين انها : «روح صافية صفاء البحار »

كذا دفعت الشفقة « ايونيا » الى الشر والعذاب ، ماتت ولا يزال الجنس الارجوسى يتنجع قبرها ، كان عليها ان تعرف الموت بعد اللذة ، وان تذوق الثمار المرة التى بذرت بذورها ، لكن بتخلصها

من جسد هيلانة المنحل تجسمت فى شكل امراة اخرى وانقادت ثانية الى كل فاحشة ، وهكذا بانتقالها من جسد الى جسد ، واجتيازها مراحل الشر بيننا ، تحمل اوزار الدنيا ، ولن تذهب

تحيتها ادراج الرياح ، فلاتصالها بنا برابطة اللحم والدم ، ومحبتها لنا ومشاركتنا فى ذرف الدموع .. ستحصل على نجاتنا ونجاتها معا ، وسترفعنا ، معلقين بصدرها الابيض الناصع ، الى سلام الفردوس المردود .

هيرمودور :

هذه الاسطورة ليست مجهولة منى ، فانى اذكر ما قيل عن هيلانة الشائقة انها عاشت فى احدى تقمصاتها مع « سيمون » الساحر فى ايام الامبراطور « تيبروس » ، على اننى اظن ان سقوطها كان على رغمها ، وان الملائكة طوحوا بها معهم .

زينوتميس :

كلا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الامور ياهيرمودور ، فعندهم ان « ايونيا » الحزينة سقطت مضطرة غير مختارة لكن اذا كان الامر كما يزعمون فان ايونيا لن تكون السرية المكفرة ، والشذر المغمور بكل مسبة ، والخبز المنقوع فى خمر عارنا ، والقربان المحبب ، والضحية الثابة ، والمحرقة التى يتصاعد دخانها الى الله ... اذا لم تكن خطاياها برضاها فلا خير فيها ولا فضل لها .

كاليكرات :

لكن ، هل يعلم احد يا زينوتميس ، باى ارض ، وباى اسم ، وفى اي شكل فتان ، تعيش اليوم هذه « الهيلانة » التى تتجدد ولادتها على الدوام ؟

زينوتميس :

لكيما يستطيع المرء ان يكشف عن هذا السر ، يجب ان يكون قد اوتى الحكمة ، والحكمة ، يا كاليكرات ، لم تؤت الشعراء الذين يعيشون فى عالم كثيف من الاشكال والاشباح ، والذين يتلهون بالاصوات والصور الوهمية كالاطفال .

كاليكرات :

حذار ان تسيء الى الالهة يازينوتميس الزنديق ، فالشعراء اعزة لديهم ، وقد سنت الشرائع الاولى نظما ، ومعجزات الارباب قصائد ، والاذان السماوية تستطيب وقع الاناشيد ! ومن ذا الذي يجهل ان الشعراء مطلعون على الغيب فلا تخفى عليهم خافية ؟..

واذ كنت شاعرا وقد توجت باكليل من غار « ابولو » فساطلعكم على آخر تجسد لايونيا : ان هيلانة الازلية على مقربة منكم ، انها تنظر الينا ونحن ننظر اليها ... انظروا الى تلك المراة المتكئة على مساند فراشها ، بالغة حد الجمال ، غارقة فى بحر الاحلام ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وتحركت شفتاها بالقبل ... انها هى !.. فتاة كما كانت فى عهد بريام وايام آسيا الزاهرة ، ان ايونيا اليوم تدعى تايس !.. فيلينا (Philinna) :

ماذا تقول يا كاليكرات ؟ اترى عزيزتنا تايس قد عرفت باريس ومنالاس واهل « مورة » المشهورين بجمال اربطة الساق الذين حاربوا حيال « اليون » ؟ وهل كان حصان طروادة عاليا يا تايس؟

اريستوبول (Aristobalus) :

من يذكر الخيل ؟..

فصاح شيراس :

ــ لقد شربت حتى ارتويت !..

ثم هوى ساقطا تحت المائدة ...

فرفع كاليكرات كاسه قائلا :

ــ اذا شربنا شرب البائسين ، متنا موتورين !..

ونام كوتا الشيخ ملقيا راسه الاصلع على كتفيه العريضتين ، ومرت فترة من الزمن ، ودوريون يبدو كانه يموج فى معطفه الفلسفى ، ثم اقترب من متكأ تايس وقال :

ــ احبك يا تايس ، وان كان حب المراة لا يليق بى !

تايس :

ولماذا لم تحبنى منذ هنيهة ؟

دوريون :

لانى لم اكن ذقت طعاما !

تايس :

اما انا يا صاحبى المسكين ، لم اشرب سوى الماء القراح ، فلا احبك !..

فاكتفى دوريون بما سمعه ، والسل الى جانب دروسيه التى اومات اليه بعينها لتستاثر به دون صاحبتها ، فاحتل زينوتيميس

المكان الخالى وقبل تايس فى ثغرها .

تايس :

كنت أحسبك اعف من ان تاتى بمثل هذا ...

زينوتيميس :

اننى كامل ، والكاملون لا يقيدهم قانون !

تايس :

أفلا تخشى ان تتدنس اذا القيت بنفسك فى حضن امراة ؟! ..

زينوتيميس :

للجسد ان يستسلم للشهوات ، وتبقى النفس طاهرة غيرشاعرة !

تايس :

بعدا لك ! انى اريد ان احب بالجسد والنفس معا ، كل هؤلاء الفلاسفة تيوس !

***

انطفات المصابيح واحدا اثر واحد ، ونفذت اشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فاضاءت وجوه المدعوين القاتمة وعيونهم المنتفخة ، وكان اريستوبول ، الذى سقط بجانب شيراس ، مطبق اليدين يرسل فى حلمه سوابه الى الغربان !.. وقد ضم زينوتيميس فى حضنه فيلنا المنهوكة القوى ، وصب دوريون فوق حلقوم دروسيه العارى قطرات خمر ترقرقت كاليواقيت وتدحرجت على صدرها الابيض الرجراج ، من فرط الضحك ، وقد تعقبه الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر الغض ...

نهض يوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتذبه الى اقصى القاعة ، وقال له مبتسما :

ــ اذا كان لايزال فى طاقتك يا صديقى ان تفكر ، ففيم تفكر ؟..

ــ افكر فى ان عشق النساء هو حدائق ادونيس !

ــ ماذا تعنى ؟

ــ او لم يجئ فى علمك يايوكريت ان النساء فى كل عام يشيدن حدائق صغيرة فى شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلا فى اصص تكريما

واذ كنت شاعرا وقد توجت باكليل من غار « ابولو » فساطلعكم على آخر تجسد لايونيا ، ان هيلانة الازلية على مقربة منكم ، انها تنظر الينا ونحن ننظر اليها ... انظروا الى تلك المراة المتكئة على مسائد فراشها ، بالغة حد الجمال ، غارقة في بحر الاحلام ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وتحركت شفتاها بالقبل ... انها هي !.. فتاتة كما كانت في عهد بريام وايام آسيا الزاهرة ، ان ايونيا اليوم تدعى تاييس !.. فيلينا (Philinna) :

ماذا تقول يا كاليكرات ؟ اترى عزيزتنا تاييس قد عرفت باريس ومنالاس واهل « مورة » المشهورين بجمال اربطة الساق الذين اربوا خيال « اليون » ؟ وهل كان حصان طروادة عاليا يا تاييس؟

اريستوبول (Aristobulus) :

من يذكر الخيل ؟..

فصاح شيراس :

ـ لقد شربت حتى ارتويت !..

ثم هوى ساقطا تحت المائدة ...

فرفع كاليكرات كاسه قائلا :

ـ اذا شربنا شرب البائسين ، متنا موتورين !..

ونام كوتا الشيخ ملقيا راسه الاصلع على كتفيه العريضتين ، ومرت فترة من الزمن ، ودوريون يبدو كانه يموج في معطفه الفلسفي ، ثم اقترب من متكأ تاييس وقال :

ـ احبك يا تاييس ، وان كان حب المراة لا يليق بي !

تاييس :

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة ؟

دوريون :

لاني لم اكن ذقت طعاما !

تاييس :

اما انا يا صاحبي المسكين ، لم اشرب سوى الماء القراح ، فلا احبك !..

فاكتفى دوريون بما سمعه ، وانسل الى جانب دروسيه التي اومات اليه بعينها لتستأثر به دون صاحبتها ، فاحتل زينوتميس

المكان الخالي وقبل تاييس في ثغرها .

تاييس :

كنت أحسبك اعف من ان تاتي بمثل هذا ...

زينوتميس :

انني كامل ، والكاملون لا يقيدهم قانون !

تاييس :

افلا تخشى ان تتدنس اذا القيت بنفسك في حضن امراة ؟..

زينوتميس :

للجسد أن يستسلم للشهوات ، وتبقى النفس طاهرة غير شاعرة !

تاييس :

بعدا لك ! اني اريد ان احب بالجسد والنفس معا ، كل هؤلاء الفلاسفة تيوس !

***

انطفات المصابيح واحدا اثر واحد ، وتغلغلت اشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فانسابت وجوه المدعوين القائمة وعيونهم المنتفخة ، وكان اريستوبول ، الذى سقط بجانب شيراس ، مطبق اليدين يرسل في حلمه سوابه الى القربان !.. وقد ضم زينوتميس في حضنه فيلنا المنهوكة القوى ، وصب دوريون فوق حلقوم دروسيه العاري قطرات خمر ترقرقت كاليواقيت وتدحرجت على صدرها الابيض الرجراج ، من فرط الضحك ، وقد تعقبه الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر الغض ...

نهض بوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتذبه الى اقصى القاعة ، وقال له مبتسما :

ـ اذا كان لايزال في طاقتك يا صديقي ان تفكر ، ففيم تفكر ؟..

ـ افكر في ان عشق النساء هو حدائق ادونيس !

ـ ماذا تعني ؟

ـ او لم يجر في علمك يابوكريت ان النساء في كل عام يشيدن حدائق صغيرة في شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلا في اصص تكريما

لعاشق الزهرة ؟ فهذه النخيل تنضر وتخضر قليلا ثم تذوي وتذبل..

ـ واي قيمة لهذا يانسياس ؟ فمن الحماقة ان يتعلق المرء بظل لاشك زائل .

ـ اذا كان الجمال ليس سوى ظل ؛ فليس الاشتهاء الا وميض برق ، ويا ليت شعرى اية حماقة فى اشتهاء الجمال ؟ من راى أن ما يزول ينبغى ان يصحب ما لايدوم ؛ وان الوميض الحائل يبتلع الظل الزائل ...

ـ انك تبدو لى يا نسياس طفلا لاعبا بالاكر ! الا فتحرر تكن رجلا ! ..

ـ كيف يمكن لانسان ان يتحرر يابوكريت وله جسد ؟..

ـ سترى حالا يا ولدي ، وتقول : « لقد كان بوكريت حرا » .

وكان الشيخ يستند اثناء كلامه الى عمود من رخام سماقى ، وقد اضاء جبينه باشعة الفجر الاولى، فاقترب هيرمودور وماركوس ووقفا بجانب نسياس واخذ الاربعة يتحدثون فى الالهيات غير مكترثين لضحك السكارى وصياحهم ، فاعرب بوكريت عن حكمة وابان عن فصاحة ، جعلت ماركوس يقول له :

ـ انك خليق بان تعرف الله الحق .

فاجاب بوكريت :

ـ ان الله الحق فى قلب كل حكيم .

ثم تكلموا فى الموت ..

قال بوكريت :

ـ اريد ان يجدنى الموت مشغولا بتقويم اعوجاجى وتادية واجباتى فارفع يدي الطاهرتين امامه نحو السماء واقول للالهة : « ايتها الالهة ، لم ادنس قط صورك التى وضعتها فى هيكل روحي ؛ هناك علقت افكارى كالاكاليل والتيجان ؛ لقد عشت ممتثلا لذاتك العلية ؛ وقد عشت حتى اكتفيت » .

قال هذا ورفع ذراعيه الى السماء فاضاء وجهه بنور ساطع .

ولبث هنيهة مفكرا ، ثم عاد يقول مسرورا :

ـ انتزع ذاتك من الحياة يا بوكريت ، كما تسقط الزيتونة الناضجة من الشجرة التى حملتها ، فتحمدها وتحمد الارض التى غذتها .

ثم اخرج من ثنيات ثوبه خنجرا مسلولا واغمده فى صدره ...

ولما امسك ساعده بيده ، كان النصل قد اخترق صدر الرجل الحكيم ، فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصفر المخضب بالدماء الى مضجع بين ولولة النساء المذعورات ؛ وتافف الاضياف المنزعجين من رقادهم ، وتاوهات الشهوات المكتمة التى ركدت ريحها وخبت نارها ؛ اما الشيخ كوتا فقد استيقظ من نومه العسكري الخفيف ودنا من الجثة يفحص الجرح ويصيح :

ـ على بطبيبى اريستيه !

فهز نسياس راسه وقال :

ـ لقد قضى بوكريت ؛ انه اشتهى الموت كما يشتهى غيره الحب ، وقد اذعن ، مثلنا جميعا ، لامنية مبهمة ، وها هو الان مثل الالهة الذين لا يتمنون ولا يشتهون شيئا ...

فقرع كوتا جبهته وقال :

ـ الموت ! يشتهى الموت وهو لا يزال قادرا على خدمة الدولة ؟ يا للخبال !..

وكان بافنوس وتاييس قد لبثا جالسين جنبا الى جنب بغير حراك ، وقد فاضت نفساهما بالاشمئزاز والرعب ، والامل ...

ثم امسك الراهب فجاة بيد الممثلة ، وتخطى معها السكارى المصروعين على مقربة من المتعانقين والمتضاجعين ، واجتذبها مجتازا بها الشراب المسكوب والدم المسفوك ...

البردى

عود على بدء

طلع الصبح بلون الورد على المدينة ، وامتدت صفوف الاعمدة الطويلة على جانبي الطريق المقفر ، وقد أشرفت عليه من بعيد قبة قبر الاسكندر المتلالئة ، وكان على جانبي الطريق أكاليل زهر سقطت اوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك ، وكان الهواء مرطبا بنسمات البحر العليلة ، فمزق بافنوس ثوبه الفاخر مشمئزا وداس عروضه بقدميه ، وصاح قائلا :

ــ ها قد سمعتم ياتاييس ، فقد نفثوا صنوف الحماقات والخبائث ، وقذفوا بفاطر السموات والارض من أعلى سمائه الى أسفل درك الجحيم حيث الشياطين ، وانكروا بوقاحة وجود الخير والشر ، وجدفوا على السيد المسيح وكفروا به ، والتوا على يهوذا ، أما أشدهم طغيانا وفجرا فهو ذئب الظلام ، والحيوان النجس ، الاربوسى النتن المحشو بالفساد والهلاك ، فقد فتح فاه كما تنبش القبور ... أي تاييس ! لقد رأيت تلك القوقعات النجسة تزحف اليك وتدنسك بعرقها اللزج ، وابصرت أولئك الوحوش نائمين تحت أقدام العبيد ، وشاهدت أولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس المدنسة بقيئهم ، لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دما النجس من الخمر المسكوبة في مجلس دعارتهم ، ويلقى بنفسه بعد الفراغ من التهتك والخلاعة في وجه المسيح غير المنتظر !... الحمد لله !.. لقد رأيت الخطيئة وعرفت انها مرذولة وساءت سبيلا ، تاييس ! تاييس ! تاييس ! أذكرى جهالة أولئك الفلاسفة ، وقولى : هل ترغبين في الهذيان مثلهم ؟ أذكرى النظرات والحركات والقهقهات التي عاينتها من رفيقتيهم الخليقتين بهم .. تانك القردتان البهيميتان الخبيثتان ، وقولى : أتودين أن تبقى مثلهما ؟ أما تاييس التي احفظت قلبها مكاره تلك الليلة ، وشعرت

بتفاهة الرجال وبهيميتهم ، وخبالة النساء ، وثقل وطأة الايام... فانها قالت متنهدة :

ــ نفسى متعبة حتى الموت يا ابى ، فاين الراحة ؟ أحس بجبيني ملتهبا ، ورأسى خاويا ، وذراعي مرتخيتين حتى لا أملك من القوة ما يكفيني لامساك السعادة لو أنها وضعت في راحتى .

فنظر اليها بافنوس بحنو وقال :

ــ تشجعى يا أختاه ! فقد اقتربت الساعة التي ترتاحين اليها ، انت التي ستضحى بيضاء نقية مثل هذه الابخرة التي ترينها صاعدة من الحدائق والبحيرات .

***

اقتربا من بيت تاييس ، وشاهدا فوق الجدران رءوس أشجار الجميز والجلنار ، المحيطة بكهف العذارى ، تهتز تحت ظل نسمات الصباح ... وكانت أمامهما رحبة خالية محاطة بالعمد والتماثيل المنذورة ، وفي أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الاشكال ، فسقطت تاييس على أحد هذه المقاعد ، ثم رشقت الراهب بنظرة تلهف ، وتساءلت :

ــ ماذا ينبغى أن أعمل ؟

فأجاب الراهب :

ينبغى أن تتبعى ذاك الذى أتى للبحث عنك ، انه سيفصلك عن هذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنب الذى يتعفن في الكرم ويأخذه الى معصرة الخمر ليحوله الى صهباء طيبة النكهة معطرة ، اسمعى ! ان على مسيرة اثنتى عشرة ساعة من الاسكندرية ، الى الجهة الغربية ، بقرب البحر ، دير للراهبات ، تعاليمه آيات حكمة بينات جديرة بأن تكتب شعرا غنائيا ، وتوقع على ألحان الدف والطنبور .. والحق أن النساء اللائى فيه بأتباعهن تلك التعاليم وأقدامهن على الارض ، أصبحت جباههن في السماء ! .. وهن يحيين في هذا العالم حياة الملائكة ، يردن أن يكن فقيرات ليحبهن يسوع ، خفرات كي ينظر اليهن ، قانتات ليتزوجهن ... يزورهن يوميا في ثوب بستانى حافى القدمين ، ويداه الجميلتان مفتوحتان مثلما أظهر نفسه لمريم في طريق الضريح ، وعلى ذلك سآخذك اليوم

الى هذا الدير يا تاييس ، ولا تلبثين بعد انضمامك الى اولاء الراهبات القديسات أن تشتركي في سمرهن السماوي ، انهن ينتظرنك كاخت لهن ، وعند عتبة الدير أمهن « البين » النقية تمنحك قبلة السلام ، وتقول لك : « أهلا وسهلا بك يا ابنتى ! »

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت :

ـ البين ! ابنة القياصرة ! ابنة اخت الامبراطور كاروس !

ـ هى بعينها ! البين الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الارجوان الرومانى أشعارا بالية وسمت بنت سادة الدنيا الى منزلة خادم يسوع المسيح ، ستكون امك .

فنهضت تاييس وقالت :

ـ خذنى الى بيت البين !

فقال بافنوس متمما نصره المبين :

ـ سأسير بك حتما اليه ، وسأقفل عليك فى صومعة حيث تبكين على آثامك وما قدمت يداك ، اذ ليس من الراى الصواب ان تختلطى ببنات البين قبلما تغتسلى من جميع خطاياك ، وسأضع على الباب ختما ، وستمكثين سجينة سعيدة حتى يأتى يسوع بنفسه ويكسر الخاتم علامة الغفران ، بالله لا يداخلك ريب يا تاييس فى مجيئه قريبا ، ويا للرعشة التى سوف تسرى فى جسمك حين تشعرين باصابع نورء فوق عينيك ترقأ دموعك !

فقالت تاييس ثانية :

ـ خذنى يا ابى الى بيت البين !

امتلأ قلب بافنوس فرحا ، فنظر حوله وذاق ـ غالبا بغير خوف ـ لذة التأمل فى المخلوقات ، ونهلت عيناه من نور الله بابتهاج ، ومرت فوق جبينه نسمات مجهولة .. ثم ابصر فجاة فى احدى زوايا الميدان الباب الصغير المؤدى الى بيت تاييس ، وتذكر ان تلك الاشجار البديعة التى كان يعجب باعاليها قد ظللت حدائق العاهرة ، ورأى بعين الفكر الارجاس التى لوثت الهواء الذى كان فى ذلك اليوم منعشا ونقيا ، فامضه ذلك واشجاه ، وعال من صبره وشجاه ، فاجهش بالبكاء وقال :

ـ ستولى الادبار يا تاييس ، لا تلوي على شيء ، لكن لن نترك

وراءنا الادوات ، الشهود ، الشركاء فى جرائمك الماضية ، تلك السجوف والاسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح التى تعلن عن فجورك ، اتريدين متاع الجريمة هذا المسكون بالشياطين والذى يحمله الروح اللعين المستقر فيه .. ان يتبعك ايضا الى البادية !.. والحق الذى لاريب فيه ، ان موائد العار ومقاعد الشنار تستخدم كأعوان للشياطين ، فهى تعمل وتتكلم وتخبط فى الارض وتخترق الجو ! فليكن العدم والفناء نصيب شهود عارك ! الا فاسرعى يا تاييس ومرى ، والمدينة هاجعة ، عبيدك ان يقيموا فى وسط هذا الميدان كومة من الخشب تحرق فوقها الثروة المدنسة التى يحتوى عليها مسكنك .

فارتضت تاييس ذلك وقالت :

ـ افعل يا ابى ماتريد ، لست اجهل ان المتاع اللادوح فيه يصلح مساكن للارواح !.. فى الليل ، يتكلم بعض الاثاث سواء بضربات يحدثها فى فترات معينة ، او باظهار اضواء ضئيلة كاشارات ، ولكن هذا كله ليس بذى بال ، فثمة ماهو ادهى وامر ، افلم تلحظ يا ابى الى يمين مدخل « كهف العذارى » تمثال امرأة عارية كأنها تتاهب للاستحمام ؟ رايت بعينى رأسى هذا التمثال وقد التفت ذات يوم كأنه انسان حى ، ثم استعاد مظهره العادى ، فتثلجت اطراق رعبا ، وضحك منى نسياس لما اخبرته بهذه الاعجوبة ، فلا بد وان يكون فى هذا التمثال بعض السحر ، فقد حدث انه نفث مآرب مضنية فى رجل دلماسى كان كافرا بجمالي ، حقا لقد كنت فى وسط اشياء ساحرة ، وكنت معرضة لاشد الاخطار برؤية الرجال وقد خنقهم عناق تمثال البرونز هذا ! ومع ذلك فمن دواعي الاسف ان تعدم النفائس المصنوعة بمهارة نادرة ، واذا جعلت بسطى وسجوفى طعمة للنيران كانت الخسارة لا تعوض ، وان جمال لون بعضها لباهر حقيقة ، وقد انفق عليها الذين وهبونيها اموالا لا يستهان بها ، كذلك املك اقداحا وتماثيل وصورا ثمينة ، ولا اظن أن اتلافها ضرورى ، لكنك يا ابى تعلم ما يجب عمله ، فافعل ما تريد .

ثم تبعت الراهب الى الباب الصغير حيث علقت اكاليل الزهر والتيجان الكثيرة ، ولما فتح امرت البواب ان يدعو عبيد البيت

جميعا ، فظهر أولا أربعة هنود طهاة ، وكانوا عورا صفر البشرة ، وقد كابدت تاييس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة فى جمعهم من جنس واحد ، ومصابين بعاهة واحدة ، وكانوا عندما يخدمون على المائدة يثيرون فضول المدعوين فتأمرهم تاييس بقص تاريخ حياتهم ، فاقترب هؤلاء وظلوا صامتين ، لم تبعم مساعدوهم ، ثم أقبل السواس والسائدون وحملة المحفة والسعاة الذين لا يغشيهم التعب وبستانيان غزيرا الشعر ، وستة زنوج ذوو هيئة وحشية ، وثلاثة مماليك يونانيين أحدهم نحوى والثانى شاعر والثالث مغن ، اصطفوا جميعا بانتظام فى الرحبة ، وأقبلت الزنجيات الفضوليات ، منزعجات ، بدرن عيونهن الكبيرة ، وأشداقهن منشقة حتى آذانهن ، ثم ظهر ست جوار بيض جميلات ، عابسات ، متنقبات ، يجررن ببطء أقدامهن المكبلة بسلاسل ذهبية دقيقة .

ولما تكامل عددهم ، قالت تاييس لهم ، وهى تشير الى بافنوس :

ــ افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل ، فقد حلت به روح الرب ، فاذا خالفتموه أدرككم الموت .

ذلك انها كانت قد سمعت أن لأولياء الصحراء من البأس مايغرق الخاطئين الذين يضربونهم بعصيهم فى جوف الارض المنشق الملتهب فآمنت بما سمعت !

صرف بافنوس النساء ، والمماليك اليونانيين الذين كانوا كالنساء ، وقال الباقين :

ــ ايتوا بخشب فى وسط الرحبة ، واوقدوا نارا ، والقوا فيها ما دار عليه البيت والكهف .

فوقفوا بلا حراك مشدوهين ، وسألوا مولاتهم بأعينهم ، فلما رأوها لا تأتى بحركة ، ولا تنبس ببنت شفة ، تزاحموا بالمناكب ، وقد داخلتهم الشكوك فيما يراد بذلك ، وحسبوه دعابة ...

قال الراهب :

ــ اطيعوا !

كان منهم مسيحيون عديدون ففهموا ما طلب اليهم ، وراحوا يبحثون فى البيت عن خشب ومشاعل ، وتبعهم الباقون بغير استياء لأنهم لفقرهم يبغضون الثراء ، وفى غريزتهم حب التدمير ، وبينما كانوا يكدسون الخشب ، قال بافنوس مخاطبا تاييس :

ــ خطر لى ان استدعى خازن احدى كنائس الاسكندرية ، اذا كان فيها مايصح ان يسمى كنيسة ولم يدنسه الاريوسيون الوحوش ، لاعطيه متاعك أيتها المرأة ليوزعه على الارامل والمساكين ، وبذلك يستحيل ربح الجريمة الى كنز العدالة ، لكن هذا الخاطر لم يأت من عند الله ، لذلك نبذته نبذ النواة ، فلا شك ان اعطاء أسلاب الترف والرفاهية الى احباء المسيح يكون اساءة بالغة .

أى تاييس !

يجب ان يذهب كل ما لمسته يداك طعمة للنيران حتى يصير هشيما تذروه الرياح ، حمدا لك يا سماء ، فان هذه الشفوف وهذه النقب التى تلقت من القبل ما لا عدد له ، كأمواج البحر الزاخر ، لن تحس الآن الا شفاه اللهيب والسنته ! عجلوا أيها الارقاء ! هاتوا ايضا خشبا ومشاعل ! وأنت يا امرأة ، ادخلى البيت وانزعى حليك الفاضحة ، والتمسى من أحقر جواريك ان تمن عليك بأرث قميص لها تلبسه وهى تمسح البلاط ...

فاطاعت تاييس ...

وبينما كان الهنود راكعين ينفخون فى الجذوة المتقدة ، قذف الزنوج على النار صناديق العاج والابنوس والارز وهى مفتوحة فسقطت منها التيجان واكاليل الزهر والقلائد ، وارتفع عمود أسود من الدخان مثلما فى محرقات الشرائع القديمة ، ثم ان النار التى حصرت فى صعيد واحد ، اندلعت فجأة وزأرت كحيوان مفترس ، واخذ لهيبها الذى يكاد لا يرى من شدة تكاثف الدخان ، يلتهم وقودها الثمين ، فازدادت حمية العبيد فى عملهم ، ونشطوا لجر البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج المزخرف وقد اثقل كواهلهم حمل المناضد والارائك والوسائد السميكة والاسرة ذات العمد الذهبية ، وجرى ثلاثة احباش اقوياء حاملين فى احضانهم تماثيل الكهف الملونة التى كان احدها محبوبا كأنه من الاحياء ، فما كان أشبههم بالقردة الكبيرة خاطفة النساء ! ولما سقطت هذه الدمى الجميلة المتجردة من أذرع حامليها وتكسرت فوق الاحجار ، سمع لها صدى زفير وتنهد ...

وحينئذ ظهرت تاييس ، وشعرها مرسل على كتفيها ، حافية ، ترتدى قميصا خشنا لا هندام له ، ولعله صار بلمسه بدنها مشربا بنعمة الله ...

وجاء وراءها بستانى يحمل تمثال « ايروس »(1) صغير الحجم ، مصنوعا من العاج ، مخبوءا فى لحيته المتدلية ، فاشارت تاييس الى الرجل بالوقوف ، واقتربت من بافنوس وارته التمثال الصغير ، وسالته :

ــ احتم يا ابى القاء هذا ايضا فى النار ؟ انه من الآثار القديمة العجيبة ، وهو يساوى مائة مرة وزنه ذهبا ، ولن يعوض فقده ، لانه لن يوجد فى العالم فنان قادر على صنع مثله ، ولا تنس يا ابت ان هذا الطفل الصغير هو رمز « الحب » ، ومن الواجب الا يعامل بقسوة ، صدقنى يا ابت ان الحب فضيلة ، واذا كنت انا قد اذنبت ، فليس منه ، وانما اليه ، لن اندم ابدا على ما جعلنى الحب اعمله ، وانى لآسفة جد الاسف على ما اقترفته برغم منه ؛ اما تراه وهو يابى على النساء ان يهبن انفسهن للذين لا يتقدمون باسمه ؟ انه خليق بكل اجلال واكبار ، انظر يا بافنوس الى هذا « الايروس » الصغير ما ابدعه ! لقد لجا برقة وخفر الى لحية البستانى مختبئا ، اهداه الى نسياس يوما ، وهو يحبنى ، قائلا : « سوف يحدثك عنى » لكن اله الحب الماكر حدثنى عن شاب كنت قد عرفته فى انطاكية ، ولم يذكر لى نسياس ابدا .. او لم يكف يا ابى ما هلك فى هذه المحرقة ؟.. ابق على هذا «الايروس» ، وضعه فى معبد ، فيتوجه الذين يرونه الى الله بقلوبهم ، لان « الحب » طبعا يعرفكيف يسمو بتلك القلوب الى الافكار العلوية..

وكان البستانى ، وقد جرى فى ظنه ان الايروس نجا ، يبتسم له كانه الطفل الرضيع ، فاختطفه بافنوس من الذراعين اللتين تحملانه ورمى به الى اللهب صارخا :

ــ يكفى ان يكون نسياس قد لمسه ، ليفيض بكل انواع السموم !

ثم امسك بملء راحتيه الثياب المتالقة ، والاردية الارجوانية والنعال الذهبية ، والامشاط ، ومحكات الجلد ، والمرايا ، والمصابيح ، والطنابير ، والقيثارات ، ورمى بها فى الاتون الذى كان ابهى من محرقة «سردانابال» ، فى حين سكر العبيد بنشوة التدمير ، فرقصوا وهللوا تهليلا وحشيا تحت وابل من الشرر والرماد .

---

(1) Eros هو اسم يونانى لاله الحب عند الاغريق

استيقظ الجيران على هذه الجلبة واحدا بعد واحد ، ففتحوا نوافذهم ، وفركوا عيونهم ليتبينوا مصدر الدخان ، وخرجوا مرتدين بعض الثياب ، واقتربوا من مكان المحرقة متسائلين :

ــ ما الخبر ؟ ..

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تاييس أن تشترى منهم العطور والملابس ، فانزعجوا واتلعوا اعناقهم محاولين ادراك كنه الامر .

ومر بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا منصرفين من وليمة ، يتقدمهم عبيدهم ، فوقفوا ورءوسهم متوجة بالزهر ، وارديتهم محلولة العرى ، وصاحوا صياحا عاليا ...

واخذ هذا الجمهور الفضولى يزداد بغير انقطاع ، وعرف ان تاييس اغراها كاهن انصينا بحرق متاعها قبلما تعتزل فى احد الاديرة .

ففكر التجار فى امرهم ، قائلين لانفسهم :

ــ تاييس تاركة المدينة لتمعن من بناها ، فلن نبيعها بعد شيئا ، فما افظع التامل فى هذا !.. يا ويلنا ، ماذا يكون مصيرنا اذا زايلتنا ؟.. ان هذا الراهب افقدها رشدها ، انه يمحقنا ، لماذا ترك حبله على غاربه ليأتى بمثل هذا ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ افلم يبق فى الاسكندرية قضاة ؟ ان تاييس لا تفكر فينا او فى زوجاتنا واطفالنا المساكين ، ان مسلكها فضيحة عامة ، ينبغى ان نكره على البقاء فى المدينة اكراها ...

***

وفكر الشبان من جهتهم :

ــ اذا كانت تاييس تكف عن التمثيل وتطلق الحب ، فان امر اللاهى ينقض وينفر ، انها كانت بهجة المسرح ، ومجده الطارف ، وعزه التليد ، انها كانت متعة ومسرة حتى للذين لم يحظوا بها ، فيها احب المرء من احب من النساء ، وما من قبلة واحدة ، تبودلت مع امراة ، لم يكن لتاييس فيها اثر ... لانها كانت لذة اللذات ، ومجرد الشعور بانها تتنفس بيننا ، يهيج فينا اللذة !..

كذلك فكر الشبان ، ومنهم فتى يدعى « شيرون » كان قد حظى بها يوما ، فاخذ يصرخ ناعيا هذا السلب والنهب ، سابا المسيح المغتصب .

وجميعهم ذموا تصرف تاييس وعابوه :

ــ انه فرار مخز !

ــ انه رحيل بجبانة

ــ انها آخذة الخبز من افواهنا !

ــ انها ذاهبة بصداق بناتنا !

ــ عليها ، على الاقل، أن تدفع ثمن التيجان التى بعثها اياها!

ــ ولمن السنين حلة التى اوصتنى بصنعها !

ــ انها مدينة لكل انسان !

ــ من التى تمثل بعدها ادوار « افيجينيا » و « الكترا » و « بوليكسنا » ؟ ان « بوليب » الجميلة لن تبلغ شأوها !

ــ ستكتئب الحياة اذا اغلق باب تاييس

ــ كانت الكوكب المتألق الساطع ، كانت فى سماء الاسكندرية البدر النير الطالع !

***

وفى تلك الفترة من الزمن ، اجتمع فى الساحة اشهر السؤال والمستعطين ، من العميان والمقعدين والمشلولين ، وزحفوا فى ظل الاغنياء متأوهين :

ــ كيف نعيش لما لا تكون تاييس هنا لتطعمنا ؟ ان فتات مائدتها كان يشبع كل يوم مائتين من المساكين ، واعتاد عشاقها عندما يغادرونها ، وقد طابت نفوسهم ، ان يرمونا بملء أيديهم فضة ..

واندس ايضا وسط الزحام بعض اللصوص واخذوا يصرخون صراخا يصم الآذان ، وزاحموا القريبين منهم ليزيدوا اختلال النظام ، ويغتنموا الفرصة لنشل ما خف حمله وغلا ثمنه !

اما الشيخ « تاديه » ، بائع الصوف والكتان ، الذى كانت تاييس مدينة له بمبلغ كبير من المال ، فقد لبث وحده ساكنا فى وسط الضجيج ، اصاخ باذنه ، ودار بنظره ، وداعب لحيته لحية التيس ، ولاحت عليه سيماء التفكير ، واخيرا ، اقترب من الشاب « شيرون » وشده من كمه ، وقال بصوت خافت :

ــ انت ، يايها المولى الجميل ، ذا حظوة عند تاييس ، تدخلْ ولا تدع هذا الراهب يذهب بها !

فصاح شيرون :

ــ فبسما بولكس وكاستر ، لن ادعه يفعل ذلك ! ساخاطب تاييس واحسبها ، ولا فخر ، ستصبح الى اكثر منها الى هذا الملوث بالرغام !.. افسحوا الطريق ! طريقا يا رعاع !

وبعد ان امعن فى الرجال ضربا بجمع يده ، سارعا العجائز ، واطئا بقدميه الاطفال ، وصل الى تاييس ، واخذها جانبا قائلا لها :

ــ يا بنيتى الحسناء ! انظرى الى واذكرى نفسك ، واخبرينى اصحيح انك زهدت فى الحب ؟ ..

لكن بافنوس حال بينهما صائحا :

ــ ايها الفاجر ! اخش روعة الموت ان انت لمستها ! انها مقدسة ! انها ملك لله

فاجابه الفتى ساخطا :

ــ سحقا لك يايها التسناس !، دعنى وحبيبتى اخاطبها ، والا جررتك بلحيتك الى النار حيث اشوى هيكلك القبيح شيا كالسجق!

ومد يده نحو تاييس ، لكن الراهب دفعه بعيدا ، بقوة غير منظورة ، فترنح الفتى وسقط على بعد اربع خطوات من موضع المحرقة ، وسط الشعل المنهالة .

وكان الشيخ تاديه يذهب اثناء ذلك من رجل الى آخر ، شادا آذان العبيد ، مقبلا أيدى السادة ، يحرضهم جميعا على بافنوس ويغريهم به ، وما لبث ان الف عصبة صغيرة سارت رأسا الى الراهب الخاطف .

ونهض شيرون بوجه اسود ، وشعر شائط ، وقد كاد يختنق من الدخان ، والدمع متميزا من الغيظ مجدفا بالآلهة ، والقى بنفسه فى وسط المهاجمين الذين كان السائلون يزحفون من خلفهم ، ملوحين بعكاكيزهم ، فحصر بافنوس ، فى الحال ، وسط دائرة من قبضات ايد ممدودة ، وعصى مرفوعة ، وصيحات مروعة .

ــ اشنقوا الراهب ! اشنقوه ! ..

ــ كلا ! اقذفوا به فى النيران ! اشووه حيا !

فامسك بقبضته الجميلة ، وضمها الى صدره ضمة طويلة ، وصاح بصوت كالرعد القاصف :

ــ ايها الفجار ! لا تحاولوا ان تختطفوا الحمامة من نسر الرب !

اولى بكم ثم اولى ان تقتدوا بهذه المرأة وتتأسوا ، وان تبذلوا مثلها بتربكم تبرا ! احتذوا مثالها ، وابذلوا المال الزائل الذى تظنون انكم تملكونه ، وهو الذى يملككم ويستعبدكم ، عجلوا ! فقريبا ماتوعدون واوشك الصبر الالهى ان ينفد ، توبوا واعترفوا بذنوبكم ، وابكوا وصلوا واقتفوا اثر تاييس ، اكرهوا خطاياكم التى لا تقل عن خطاياها ، ليت شعرى من منكم غنيا كان ام فقيرا ، تاجرا ام جنديا ، عبدا رقيقا ام عينا وجيها .. يجرؤ على ان يقول بين يدى الله انه كان خيرا من بغى فاجرة ! ما انتم الا ادران متجسمة ، وانها لآية من لطف الله بكم الا تتحولوا فجأة الى مجـار طافحة بالوحول ..

وكان ينبعث من حدقتيه وهو يتكلم ، شرر مستعر ، وكأنما تساقط من شفتيه حجر متوهج ، فاصغى اليه الذين من حوله صاغرين .

لكن « تاديه » الهرم لم يكف عن المقاومة ، بل كان يجمع الحجارة واصداف المحار ويخفيها فى طيات ثوبه ، ولم يجرؤ على ان يرميها بنفسه ، قدمها فى ايدي السائلين ، وما لبث الراهب ان انهالت عليه الحجارة ، واصابت جبينه صدفة محارة احكم تسديدها ، وسال الدم الذى انحدر من وجه الشهيد الكئيب على راس التائبة كتعميد جديد ، وشعرت تاييس ، وقد ضغطها عناق الراهب وخدش ثوبه الخشن جلدها الغض ، بالرعب والجزع يسريان فيها .

واذ ذاك اقبل رجل انيق اللباس ، متوج الجبين بالكرفس ، وشق لنفسه طريقا وسط الجمهور المائج ، وصاح :

ـ قفوا ! كفوا ان هذا الراهب اخى !

وكان الرجل نسياس ، وقد مر بالرحبة عائدا الى داره بعد ان اغمض عينى الفيلسوف يوكريت ، وراى بغير كبير دهشة (لانه لم يدهشه شيء قط) المحرقة المدخنة ، وتاييس مرتدية خرقة خشنة ، وبافنوس يرجم .. فكرر قوله :

قلت لكم قفوا ! ابقوا على رفيقى فى المدرسة ! احترموا راس بافنوس العزيز !

لكنه كان متعودا مباحثات الحكماء العويصة ، يعوزه ذلك

الحزم والتأثير الذى يسيطر على نفوس الجماهير ويتملك مشاعرهم ، فاعاروه اذنا صماء ، وسقط وابل من الحصى والمحار على الراهب الذى غطى تاييس بجسمه ، حامدا الله الذى اماتته رأفته من جراحه تزيينا ...

فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع ، والانقياد اليه ، وايقن عجزه من انقاذ صديقه سواء بالقوة او بالحجة ، وسلم امره للآلهة ـ وكانت ثقته بهم ضعيفة ـ خطر له ان يجرب حيلة ارشده اليها فجأة احتقاره للبشر ، فاخرج من منطقته كيس نقوده ، وكان ممتلئا بالذهب والفضة ، لان صاحبه من عشاق المسرات والمبرات ، ثم حاول ان يغرى الذين كانوا يرمون الحجارة برنين النقود ، فلم يعيروه بداءة بدء التفاتا ، اذ كان حنقهم عظيما ، لكن انظارهم ما عتمت ان اتجهت شيئا فشيئا الى الذهب الرنان ، ثم كفت اذرعهم الواهنة عن ايذاء فريستهم .

ولما راى نسياس انه جذب ابصارهم ، واجتذب نفوسهم ، فتح هميانه وبدأ يرمى فى وسط الحشد قطع الذهب والفضة ، فانحنى المتناهون فى الشراهة لالتقاطها ، فابتهج الفيلسوف بنجاحه المبدئى ، وجعل يرمى هنا وهناك الدراهم والدنانير ، وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف ، فخر الراجمون الى الارض متزاحمين ، وتسابق السائلون والعبيد والتجار ، والتف الاشراف حول شيرون ينظرون الى المشهد ويقهقهون ، فنسى شيرون غضبه ، وشجع اصحابه المتناضلين الراكعين ، واختاروا منهم سباقين وتراهنوا عليهم ، وكانوا يزيدون الشحناء بتحريضهم اولئك البائسين كأنهم كلاب متقاتلة ، وفاز مقعد ، مقطوع الساقين ، بالاستيلاء على درهم فعلا له الهتاف الى عنان السماء ، وبدا الشبان ايضا يرمون قطع النقود ، ولم يبق ثمة شيء يرى فى الميدان سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتنخفض ، كامواج البحر الزاخر ، تحت وابل مـدرار من المعدن الرنان ...

وغدا بافنوس نسيا منسيا .

فجرى اليه نسياس ، وغطاه بمعطفه ، وجره مع تاييس فى الازقة ، الى حيث باتوا بمأمن من المطاردة ، ركضوا حينا صامتين ، الى ان راوا انهم صاروا فى امان ، فتريثوا ، وقال نسياس بنغمة

التهكم الممزوجة بشيء من الحزن :

ـ اذن قضي الامر ! واغتصب « فلوطون » « بروزربين » (١) وتريد تاييس أن تتبع صديقي الوحشي المنظر اينما يذهب بها !

فأجابت تاييس :

ـ حقا يا نسياس ؛ لقد سئمت عشرة امثالك البائسين ؛ المتعطرين المتكسين ؛ الانانيين ؛ ومللت كل ما اعرف ، لذلك انا ذاهبة للبحث عن المجهول ؛ ولقد علمت بالاختبار أن الفرح لم يكن فرحا حقيقيا ، وهذا رجل يرشدني الى ان الحزن هو الفرح الحقيقي ، واني اومن بما يقول ؛ لانه يعرف الحقيقة .

فأجاب نسياس مبتسما :

ـ وانا ايتها النفس الحبيبة اعرف الحقائق ! هو لا يعرف سوى واحدة ، وأنا قد احطت علما بها جميعا ، فأنا اغنى منه ؛ ولكنني والحق يقال ؛ لا افوقه في كبرياء النفس ، او سعادة الجد !

ولما رأى الراهب يرشقه بنظرات نارية ، قال :

ـ لا تحسبن يا عزيزي بافنوس انى اعدك بالغا غاية السخرية ، او نهاية الشطط ، فلو قابلت حياتي بحياتك لما استطعت ان اقول ايهما أجدى وانفع . هانا الآن ذاهب لاغتسل في الحمام الذي اعدته لي كروبيل ومرتال ، وسآكل جناح دراج ، وسأعيد ـ للمرة الالف ـ تلاوة بعض القصص « الميليزية » او بعض مباحث « مترودور » وأنت ستعود الى صومعتك حيث تركع كجمل وديع ، مجترا التسابيح والتعاويذ التي لاكها فمك مرارا وتكرارا ، فاذا جاء المساء ، تناولت الفجل بلا زيت ، لكن لا بأس ! فنحن كلانا يا صاحبي العزيز ، بهذه الاعمال المختلفة في الظاهر كل الاختلاف ـ نخضع كلانا لعاطفة واحدة هي العامل الوحيد في جميع فعال البشر ، كلانا يبحث عن لذاته ويسعى في نيل القصد المشترك ـ السعادة .. السعادة المستحيلة ! وهبني ارى نفسي مصيبا ، فلا يليق بي أن اعرض لتخطئتك ياحبيبي !

اما انت يا تاييس ، فاذهبي وافرحي وكوني اسعد حظا ـ اذا

(١) في الميثولوجيا ان Pluton هو ملك الجحيم والعالم السفلي وان زحل Saturne اله الزمان وسيبل Cybèle ربة الارض واخواها جوبيتر Jupiter ونبتون Neptune وزوج بروزربين Proserpine ربة الجحيم التي اختطفها ـ (المترجم)

كان ذلك في الامكان ـ في زهد التعفف وطهارة الخشونة ، مما كنت في الغنى والمسرات ، فمن كل وجه اراك جديرة بالحسد لاننا اذا كنا انا وبافنوس في حياتنا بكاملها ، قد قنعنا ـ امتثالا لطبيعتنا ـ بضرب واحد من ضروب المعيشة الراضية ، فانك يا عزيزتي تاييس قد ذقت في حياتك هذه المسرات المختلفة التي قلما يتاح لشخص واحد ان يتمتع بها ، وحقا كم اتمنى ان اكون ساعة واحدة قديسا او وليا كعزيزنا بافنوس ، غير ان هذا محظور علي ، فالوداع اذن يا تاييس !. اذهبي الى حيث تقودك قوى طبيعتك ونصيبك وقسمتك الخفية ! اذهبي مصحوبة ايتها تذهبين بخير تمنيات نسياس ! لست اجهل انها فارغة ، ولكن هل في استطاعتي ان امنحك خيرا من تحسرات عقيمة وتمنيات باطلة جزاء التصورات السارة الممتعة التي ظللتني في حضنك فيما مضى ، والتي بقى لي منها خيالها ! الوداع ايتها المحسنة الي ، الوداع ايتها النعمة التي تجهل انها نعمة ! ايتها الفضيلة الغامضة ! يا لذة الرجال ! وداعا يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التي تنشرها الطبيعة دواما ، لغاية مجهولة ، على وجه ارضنا الغرور !

وفي اثناء كلامه ، كان قلب بافنوس يغلي من الحنق ، لتنفجر بهذه الشتائم :

ـ بعدا لك أيها اللعين ، انني احتقرك وامقتك ! ابتعد يا وليد جهنم الذي هو شر الف مرة من اولئك الاشقياء الضالين الذين كانوا الآن يرمونني بالحجارة وهم يسبون ! انهم فعلوا ذلك عن جهل ، وغفران الله الذي رجوته لهم قد يهبط يوما على افئدتهم... اما انت يا نسياس المرذول فلست سوى حمة غادرة وسم زعاف ، انفاس فمك تنفث اليأس والموت ، بسمة واحدة من بسماتك تحوي لتجديفات اكثر مما تقذفه شفتا ابليس الملوثتان في قرن من الزمان ... تبا لك أيها الكنود ، الى الوراء ! ..

فنظر اليه نسياس بالعطاف ، وقال :

ـ الوداع يا اخي ، لتك تصون الى نهاية اجلك كنوز ايمانك ومقتك وحبك !.. الوداع يا تاييس ! عبثا تنسينني وانا على ذكراك جد حريص !

تركهما وسار مفكرا فى الطريق المتعرجة بجوار مقبرة الاسكندرية الكبرى التى يسكنها صناع أوانى الدفن الفخارية ، وكانت حوانيتهم ملأى بتلك الدمى المزوقة المصنوعة من الصلصال تمثل آلهة وآلهات وتماثيل صامتة ، ونسوة وجنيات صغيرات مجنحة جرت العادة بدفنها مع الموتى ، فخطر لنسياس ان بعض الصور التى يراها قد تصحبه فى نومه الابدى ، وخيل اليه ان « ايروسا » صغيرا ، مشمر الثوب ، يضحك ساخرا ، فلما استحضر صورة جنازته التى صورها خياله قبل أوانها تألم ، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة ، واقام هذا الدليل :

– حقا ان الزمان وهم لا حقيقة له ، فما هو الا ضلالة من تصورنا ، واذا لم يكن له وجود ، فكيف يستطيع ان يجلب الموت الى ؟ فهل معنى هذا انى احيا الى الابد ؟ كلا ..! ولكنى استنتج من هذا ان موتى كائن ، وقد كان دائما ، كما انه سيكون ابدا ، لم اشعر به بعد ، ولكنه موجود ، وينبغى الا اخشاه ، ومن الحمق ان أخاف مجىء ما قد اتى ؛ انه موجود ، فكأنه آخر صفحة من كتاب اقرؤه ، ولم اتمم قراءته .

شغله هذا التعليل فى سيره ، دون ان يبهجه ، وكان مكتئب النفس عندما وصل الى عتبة داره ، وسمع ضحك جاريتيه كروبيل ومرتال الرنان ، وكانتا تلهوان فى انتظاره بلعب الكرة ...

***

غادر بافنوس وتاييس المدينة من باب القمر ، وسارا على شاطىء البحر ، فقال الراهب :

– ايتها المرأة ! هذا البحر الازرق الكبير لا يستطيع كله غسل نجاستك ...

ثم خاطبها بغضب واحتقار ؟

– يا انجس من كلبة ، واشد رجسا من خنزيرة ، لقد أبحت للفحشاء مع الوثنيين والكافرين جسدا خلقه الصمد ليكون محرابا ... وان أدناسك لعديدة حتى أنك الان ، وأنت تعرفين الحق ، لا تستطيعين ان تضمى شفتيك ، وتجمعى يديك ، بغير ما يتولد فى قلبك تقزز من نفسك ...

تبعته ، خافضة له جناح الذل والطاعة ، فى المسالك الوعرة ،

تحت اشعة الشمس المحرقة ، فأضعف التعب ساقيها ، وأحرق الظمأ انفاسها ، وألهب حلقها ، اما بافنوس ، فبدلا من ان يشعر بتلك الشفقة الكاذبة التى تلين القلوب الدنسة ، فقد فرح بالآلام التكفيرية التى تنال هذا الجسد الآثم ... ولشدة تأثير الحمية القدسية فيه ، ود لو مزق ضربا بالعصى ، هذا الجسم الذى احتفظ بجماله ، كبرهان ساطع على فجوره ، ولما ذكر ان تاييس ضاجعت نسياس ، واستحضر فى مخيلته تلك الصورة البشعة ، جرى دمه كله مرتدا الى قلبه وكاد صدره ينشق ، وغص حنجرته باللعنات ، فحرق الارم ، ووثب منتصبا ازاءها شاحبا ، رهيبا ، وقد ملأته قوة الله ، ونظر اليها حتى اخترقت نظراته اعماق نفسها ، ثم بصق فى وجهها ...

فمسحت محياها بهدوء وانكسار ، دون ان تقف فى سيرها ، فتبعها محملقا فيها كأنما هى هاوية ، ومشى مغتاظا مفكرا فى ان يثأر للمسيح حتى لا يثأر المسيح لنفسه ، واذا به يرى قطرة من الدم سالت من قدم تاييس فوق الرمال ، هنا احس بطراوة انفاس مجهولة تدخل قلبه المفتوح ... فتعالت التنهدات الوفيرة الى شفتيه ، فبكى ، ثم جرى وخر امامها ، ودعاها أخته ، وقبل قدميها الداميتين ، ولثمهما مائة مرة :

– أختاه ! أختاه ! أماه ! يا أقدس قديسة !

ثم قدم هذا الدعاء :

– يا ملائكة السماء ! خذوا قطرة الدم هذه باعتناء ، وضعوها امام عرش الله ... ليت الرمل الذى بلله دم تاييس ينبت شقائق نعمان ليسترد الذين يرون هذا الزهر نقاوة القلب وطهارة الشعور اى تاييس ، ايتها القديسة البالغة غاية القداسة !

واذ كان يصلى ويتنبأ ، مر به غلام على اتان ، فأمره بافنوس ان يترجل ، ثم اركب تاييس الاتان وامسك باللجام ، واستأنف سيره ...

***

امسيا عند قناة مظللة باشجار انيقة ، فربط الاتان بجذع نخلة ، وافترشا الاحجار ، وتقاسما رغيفا آلاه متبلا بالملح والثمام ، وشربا براحتيهما ماء سائغا ، وتحدثا فى الابديات ....

قالت تاييس :

ـ ما شربت قط مثل هذا الماء النمير ، ولا استنشقت مثل هذا الهواء العليل ، وإني لأحس ان الله سبحانه وتعالى يسبح في النسمات التي تهب ...

فأجابها بافنوس :

ـ انظري ! انه المساء يا اختاه ! هو ذا ظلال الليل الزرقاء تغطي التلال ... لكنك لن تلبثي أن ترى « خبايا الحياة » مشرقة في الفجر ، وتشاهدي اشراق ورد الصباح السرمدي !

وسارا سواد الليل ، وانشدا المزامير والتسابيح ، حينما كان نور الهلال يقبل وجنات الامواج الفضية ، وعندما اشرقت الشمس ، امتدت امامهما الصحراء الليبية كجلد اسد واسع الاطراف ، وفي آخر الرمال لاحت لأعينهما ، في ضوء الفجر ، خصاص بيض بقرب بعض النخيل ، فسألت تاييس :

ـ هل هذه هي خبايا الحياة ، يا أبت ؟

ـ لقد حذرت يا ابنتي واختي ، هذا هو الملجأ الذي ساضعك فيه بيدي .

وما لبثا ان شاهدا نساء يجلن من كل صوب حول مساكن النسك ، كالنحل حول القفير ، وكان بعضهن يخبزن ، والبعض يجهزن البقول ، والبعض يغزلن الصوف ، وعليهن نور السماء ينسكب كابتسامة من ثغر الله ... واخريات كن جالسات في ظل اشجار الاثل ، ومنصرفات للتأمل والتفكر ، وايديهن البيض بجوانبهن ، لانهن اذ شغفن حبا ، اخترن نصيب المجدلية ، فانقطعن للصلاة والتأمل ، لذلك سمين « المريمات » ، وكن يرتدين ثيابا بيضاء ، اما اللاتي كن يشتغلن بأيديهن فقد اطلق عليهن اسم « المرثيات » ، وكن يلبسن ملابس زرقاء ، وكن جميعهن مقنعات لكن اللاتي كن في نضارة الشباب ارسلن خصل الشعر تتدلى فوق الجبين ، ولعل ذلك كان ، كما يغلب على الظن ، عفوا بغير قصد ، لان نظام الدير يحظره ...

وكانت هناك عجوز بلغت من الكبر عتيا ، طويلة القامة ، بيضاء اللون ، تسير من خص الى آخر متكئة على عكاز من خشب متين ، فاقترب منها بافنوس باحترام ، ولثم طرف خمارها ، وقال :

ـ عليك سلام الله يا البين الموقرة ! لقد أتيت الى القفير الذي انت ملكته ، بنحلة وجدتها ضالة في طريق مجدب لا زهر فيه ، فأخذتها في راحتي ، وادفأتها بأنفاسي ، اني اعطيك اياها ....

واشار باصبعه الى الممثلة التي كانت راكعة امام بنت القياصرة .

فألقت البين على تاييس نظرة ثاقبة ، وامرتها بالنهوض ، وقبلت جبينها ، ثم تحولت نحو الراهب قائلة :

ـ سنضعها بين « المريمات » .

فأخبرها بافنوس عندئذ بالوسائل التي أحضرت تاييس بها الى « بيت الخلاص » ، وسألها أن تعزل ، بداءة بدء ، في صومعة فقبلت رئيسة الدير ، وقادت التائبة الى خص خلا بموت العذراء « ليتا » ، ولم يكن في هذه الصومعة الضيقة سوى فراش ومائدة وابريق ، ولما وضعت تاييس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لا حد لها .

فقال بافنوس :

ـ اريد أن أقفل الباب بنفسي ، وأن اضع عليه ختما يأتي المسيح ويكسره بيديه .

وذهب الى حافة النبع ، واخذ قبضة من الصلصال ، ومزجه بشيء من ريقه ، ووضع فيه شعرة من شعره ، وسد به شق الباب ، ثم اقترب من النافذة ، حيث كانت تاييس واقفة ، وادعة ، راضية ، وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثا ، وصاح :

ـ ما اجمل التي تسير على الصراط المستقيم ! .. ما أبدع قدميها وما أبهى محياها ! ..

ثم نهض ، وأرخى برنسه على عينيه ، وسار الهوينى مبتعدا ..

فنادت البين احدى العذارى ، قائلة :

ـ احملي يا ابنتي الى تاييس كل ما هي في حاجة اليه ، من خبز ، وماء وناي ذي ثلاثة ثقوب ...

الفربيون (١)

قفل بافنوس راجعا الى الصحراء المقدسة ، واستقل بقرب « تل اتريب Athribis » مركبا صاعدا فى النيل يحمل المؤن لدير الترابيوم ولما خرج من السفينة تقدم للاميذه للاقائه بمظاهرات الفرح العظيمة ، لانهم عرفوا ما تم بمدينة الاسكندرية على يديه ، وكان الكهنة يتلقون عادة ، بوسائل سريعة مجهولة ، الاخبار المتعلقة بامن الكنيسة ومجدها ، وكانت الانباء تذاع فى الصحراء بسرعة ريح السموم .

وبينما كان بافنوس يذرع الرمال ، تبعه تلاميذه مسبحين بحمد الله ، واعترى « فلافيان » اكبر اخوته ، هذيان دينى فجائى ، فاخذ يترنم بأنشودة ملهمة ...

ولما وصلوا الى صومعة الرئيس ، ركعوا جميعا ، وقالوا :

— يا ليت ابانا يباركنا ويعطى كلا منا مقدارا من الزيت لنحتفل بعودته ! ..

اما بولس الساذج ، فقد لبث وحده واقفا يتساءل : « من هو هذا الرجل ؟ » ... ولم يعرف بافنوس ، على انه لم يعر احد قوله التفاتا لما عرف عنه من عدم الذكاء والفطنة ، مع كونه موفور الصلاح .

***

خلا كاهن « انصينا Antinoë » فى صومعته ، فقال فى نفسه :

— ارانى قد استعدت اخيرا ملاذ راحتى وهنائى ، وعدت الى معقل قناعتى واكتفائى ، لكن ماذا حدث حتى ان هذا السقف العزيز المصنوع من الغاب ، لم يستقبلنى كصديق ، ولا قالت

(١) (الفربيون L'Euphorbe) اسم مشتق من « اوفربوس » اسم طبيب احد ملوك العرب ، ويطلق على نبات سام تسيل منه عصارة لبنية واليتيعيية من شمس المسهلات الشديدة — (المترجم)

الجدران اهلا وسهلا ! .. ما تغير منذ رحيلى شئ فى هذا المقام المختار ، هذا خوانى ، وهذا فراشى ، وهذا راس المومياء الذى طالما اوحى الى الافكار النافعة ، وهذا هو الكتاب الذى كثيرا ما بحثت فيه عن صور الله ... ومع ذلك لا اجد شيئا مما تركته ، كانما قد عريت الاشياء من رونقها المعهود ، ويخيل الى انى اراها اليوم اول مرة ، عندما انظر الى هذه المائدة ، وهذه الاريكة اللتين صنعتهما يداى فى الايام الخالية ، والى هذا الراس الاسود اليابس ، والى ادراج البردى المملوءة بآيات الله — يلوح لى انها آثار رجل ميت ، واراني ، بعد أن تعرفتها كلها ، لا اكاد اعرفها !.. وا اسفاه !.. انه ما من شئ فى الحقيقة قد تغير حولى ، ولكننى انا الذى لم ابق الشخص الذى كنته ، انا رجل آخر ، فالرجل الميت هو انا .. يا الهى !.. ما الذى صار اليه سلفى ؟ ما الذى اخذه منى ؟ وما الذى تركه لى ؟ ومن اكون انا ؟

وقد انزعج بخاصة لما وجد ان صومعته صغيرة ، مع انه كان يجب — اذا نظر اليها بعين الايمان — ان يراها كبيرة ولا يرى نهايتها ، لان سعة الله غير المحدودة تبتدئ منها ...

بدا يصلى ، ملصقا جبهته بالرغام ، فتعزى ، واسترد شيئا من الفرح ، وما كادت تمضى عليه الساعة فى التضرع والابتهال ، حتى مرت امام عينيه صورة تاييس ، فردد الشكر لله :

— يا يسوع ! انك انت الذى بعثت بها الى ، فاعترف بفضلك العظيم على ، اردت ان تسر خاطرى ، وتهدئ ثائرى ، برؤية التى اعطيتك اياها ، اراك تمثل امام ناظرى بسمتها التى زال الخوف من اذاها ، ورقتها البريئة التى لم يعد منهما ضير ولا ضرار ، وجمالها الذى نزعت منه شوكته الناخسة ! انك لكى ترضينى يا الهى ، تظهرها لى كما زينتها وزكيتها ابتغاء رضاك ، مثلما يذكر الصديق صديقه بالهدية التى تلقاها منه ، لذلك ارى هذه المرأة مبتهجة ، لثقتى بان طيفها آت من لدنك ، انك لا تنسى انى وهبتها لك يا يسوع !.. فاحتفظ بها ، ما دامت تسرك ، ولا تدع محاسنها تسبى احدا سواك ...

قضى الليل كله ساهرا ، ما اكتحل بنوم ولا اخذته سنة ، ورأى

تاييس بجلاء اظهر مما رآها « في كهف المداري » فزكى نفسه بقوله :

ــ ان ما تعلته ، قد تعلته لمجد الله …

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه ، لان قلبه لم يطمئن ، فتنهد قائلا :

ــ لم انت حزينة يا نفسي ، ولماذا انت تقلقينني !

وبقيت نفسه في الزعاج ، ولبث ثلاثين يوما على هذه الحال من الكآبة التي تعد نذيرا للناسك بمحن هائلة ، وشر مستطير ، لم تفارقه صورة تاييس ليلا ولا نهارا ، ولم يبعدها عنه لانه كان لايزال يظن انها اتت من عند الله ، وانها صورة قديسة …

لكنها في صباح احد الايام ، تراءت له في حلم ، وكان شعرها متوجا بزهر البنفسج ، وكانت رائعة في حلاوتها حتى انه صرخ من شدة الخوف … فاستيقظ وقد بلله العرق البارد ، وكانت عيناه لا تزالان متقلتين بالنعاس ، فشعر بانفاس رطبة دافئة تمر على وجهه ، انفاس ابن آوى صغير ، وضع مخلبيه عند راسه ، واخذ يلهث لهاثه النتن في وجهه ويضحك من أقصى بلعومه …

فشده بافنوس واخذ منه العجب كل ماخذ ، وشعر كانما قد انهار تحت قدميه صرح شامخ …

اجل ! .. ففي الواقع انه سقط من ذروة ايمانه المتقوض …

فظل بعض الزمن مضطرب الفكر ، ولما ثاب اليه رشده ، افضت تاملاته الى زيادة قلقه ، فقال في نفسه :

ــ اما ان تكون هذه الرؤيا من الله مثل سابقاتها ، فهي صالحة ، وفؤادي الطبيعي قد افسدها ، كما يتحول النبيذ خلا في الكاس القذرة ، وقد ابدلت ، لعدم جدارتي ، من النعمة نقمة ، واغتنم ابن آوى الشيطاني فرصتها واستفاد منها ؛ واما الا تكون من عند الله بل من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ، فهي شريرة ، وسادت سبيلا ، وفي هذه الحالة اشك فيما اذا كانت الرؤى السابقة من مصدر سماوي كما حسبتها ، فانا والحالة هذه قاصر حتى من التمييز الذي لابد منه للزاهد ، وارى الله يبدي في كلتا الحالتين ، نفوره مني ، واعراضه عني ، وهو ما اشعر

بتاثيره ، واعجز عن تعليله …

وعلى هذا النمط برهن ، لم تضرع بكرب :

ــ يا ايها الاله العادل .. باية تجارب تبلو عبادك ، اذا كانت اشباح قديسيك خطرا عليها ! .. دعني اميز بعلامة واضحة ، ما ياتي منك وما ياتي من الشيطان …

❋❋❋

صحت عزيمة بافنوس بعد ذلك على ان يكف عن التفكير في تاييس اذ تجاذبته الشكوك ولم يتح له الله ، جلت مقاصده ، ان يهديه السبيل ، لكن تصميمه ظل عقيما ، فان الغائبة عنه ، كانت حاضرة معه ، وكانها تنظر اليه وهو يقرأ ، ويفكر ، ويصلي ، ويتامل … وكان اقترابها الصوري ، يسبقه صوت كحفيف ثوب امراة في اثناء مسيرها ، وكانت هذه الخيالات ، ادق من الحقائق التي تتزعزع ويعتريها الارتباك ، بينما الاشباح الناشئة من العزلة تمتاز باهم ميزاتها من حيث شدة الثبات والرسوخ .

اتته تاييس باشكال مختلفة ، تارة مفكرة وقد توج جبينها باخر تيجانها التي احرقت ، ومرتدية كما كانت في مادبة الاسكندرية ، ثوبا ارجوانيا مرصعا بازهار من فضة واستبرق ، وطورا خليعة في سحابة من نقيها الشفافة ، مستحمة في ظلال « كهف المداري » ، وحينا متالقة في اطار القرح السماوي ، وحينا آخر مفجوعة ، تدور عيناها في مفازع الموت ، وقد ابانت عن صدرها العاري المخضب بدم قلبها الكليم …

وكان اشد ما ازعجه من هذه الخيالات ، رجوع الاكاليل والاثواب والتحف التي احرقها بيديه ؛ اذ اتضح له ان لهذه الاشياء روحا لا تفنى ولا تبيد ، فصاح :

ــ ها هي ارواح خطايا تاييس التي لا تحصى تاتي الي ! ..

ولما التفت ، شعر بتاييس وراءه ، فلم يزدد الا انزعاجا ، وكان شقاؤه بالغا اشده ، ولكن اذ ان نفسه وجسده بقيا نقيين في وسط هذه التجربة ، لم يقنط من رحمة الله ، وتقرب منه رافعا هذه الشكوى برفق وخشوع :

ــ الهي اذا كنت قد ذهبت الى هذا البعد السحيق ، افتقدها

بين الـكافرين ، فقد كان ذلك لاجلك ، لا لاجل نفسي ، فليس من العدل ان اعذب لما فعلته في طاعتك ونفعك ، اسبل على ستر حمايتك يا يسوع الحليم ! .. يا مخلص خلصني ! .. لا تبح للشيح أن يقضي ما عجز الجسد عن فعله ، اما وقد انتصرت على الجثمان فلا تدع الخيال يصرعني ، لا اجهل انى معرض لمخاطر اعظم جدا مما تعرضت له قبلا ، ولا يخفى على ان الحلم اقوى من الحقيقة ، وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية ! هو النفس ، وافلاطون ذاته مع كونه وثنيا ، سلم بصحة وجود الهواجس ، وفي مادبة الشياطين التى سحبتني اليها يارب ، سمعت احاديث رجال مع كونهم اشرارا ، لم يكونوا خالين من الذكاء ، وقد اتفقت كلمتهم ، على ان ما نبصره في العزلة والتفكير والذهول هو حقيقي ، وكتبك المقدسة يا الهي ، تثبت في مواضع عديدة صحة الاحلام وتاثير الخيالات الصادرة ، اما منك يا الهي جل شانك ، واما من عدوك ...

كان فيه رجل جديد ، فناقش الله ، ولكنه سبحانه لم يبادر الى هدايته وارشاده ، كانت لياليه حلما واحدا طويلا ، ولم تكن ايامه تختلف عن لياليه .

استيقظ ذات صباح وهو يصعد زفرات كالتى تصدر في مساء القمر عن قبور ضحايا الجرائم ، لان تاييس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء ، فلما اغرورقت عيناه بالدموع ، اندست في فراشه ، فلم يبق عنده أقل شك في ان صورة تاييس كانت صورة الم ودعارة ...

فثار قلبه تقززا وفاض اشمئزازا ، وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعا ، وخبا وجهه في يديه كيلا يرى نور النهار ، ومرت الساعات بغيران تمحو عاره ، وخيم السكوت على الصومعة ، واخيرا عاوده الشبح ، على ان غيابه كان كذلك مزعجا ، وما من شيء على الاطلاق الهاه عن تذكر الحلم الفاضح ، ففكر هالعا مرتاعا :

– لماذا لم ادفعها عني ؟ لماذا لم انتزع نفسي من ذراعيها الباردتين ، وركبتيها الملتهبتين ؟ ..

لم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه ، واشفق ان تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها في كل آن ، ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التى كانت ملازمة بابه ولم تخط قط عتبته ، قد دخلت على التعاقب وكمنت تحت المضجع ، وعند صلاة المغرب ، اقبل الثامن وكانت رائحته نتنة وبيئة لا تطاق ، وفي اليوم التالى انضم التاسع اليها ، وما لبثت ان صارت ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين ، وكانت كلما تكاثرت تصاغرت ، ولما لم تزد على حجم الفار غطت الارض والفراش والمقعد ، ووثب احدها على الرف الصغير عند راس المضجع ووضع مخلبيه الاماميين فوق جمجمة المومياء ، ثم نظر الى الراهب بعينين ناريتين ...

وفي كل يوم كانت بنات آوى جديدة تجيء يزحم بعضها بعضا .

***

فلكي يكفر بافنوس عن رجس حلمه ، ويتخلص من الافكار المدنسة قر رايه على أن يغادر صومعته التى تنجست ، ويضرب في فيافي الصحراء يمارس تقشفا وتزهدا لم يسمع احد بمثلهما ، ويقوم باعمال فريدة تسير بذكرها الركبان ، ويقدم كفارة ما لها من نظير ، لكنه راى ان يذهب الى الشيخ بالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته .

فوجده في بستانه يروى خسه ، وقد مال ميزان النهار ، وجرى النيل الازرق في سفح التلال البنفسجية ، وكان الشيخ الصالح التقى يمشي الهوينى لكيلا يزعج حمامة حطت على كتفه ، قال :

– الرب معك ، يا اخي بافنوس ! اعجب برحمته سبحانه ! يبعث الى بالحيوانات التي خلقها لاحدثها عن اعماله ، وامجده في طير السماء ! انظر الى هذه الحمامة ولاحظ الوان عنقها المتغيرة ، وقل لى : اليست من اعمال الله الجميلة ؟ ثم قل لى : أو لم تات يا أخي لتحدثني عن بعض شئون الدين ؟ اذا كان الامر كذلك ، فسانزل رشاشتي والقي بسمعي اليك .

فحكى له بافنوس حكاية رحلته ، وعودته ، ورؤياه في النهار ، واحلامه بالليل ، ولم يغفل ذكر الحلم الاثيم ، وجماعة بنات آوى ، ثم قال :

ـ الا ترى يا ابي انه يجب على ان اتغلغل في الصحراء ، لاقوم فيها باعمال خارقة ، وادهش ابليس بزهدي واستماتتي ؟ ..

فاجابه بالمون :

ـ لست سوى خاطيء مسكين ، وخبرتي بالناس قليلة ، اذ قضيت طول حياتي في هذا البستان مع الغزلان والارانب الصغيرة والحمام ، لكن يلوح لي يا اخي ان مرضك ناشيء على الخصوص من انتقالك بغتة بغير حيطة ، من جلبة المعمورة الى سكينة القفرة ، هذه الانتقالات الفجائية لابد ان توهن صحة النفس ، ومثلك يا اخي مثل رجل يعرض نفسه ، في وقت واحد تقريبا ، للقيظ والقر ، فيرجه السعال وتبرح به الحمى ، ولو كنت في موضعك يا اخي بافنوس ، لكنت بدلا من الاعتزال في الحال في صحراء مرعبة ، آخذ بالتسليات الصالحة لناسك تقى وكاهن ورع ، كنت ازور الاديرة المجاورة ، وبعضها كما يقال عجيب ، فدير السرابيوم يحوى على ما بلغنى الفين ومائتين واربعمائة الف صومعة ، والرهبان فيه منقسمون الى شعب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية ، ويؤكد الثقاة ايضا انه قد لوحظت مشابهات صادقة بين خصال الرهبان واشكال الحروف التى تدل عليهم ، فالذين هم ، على سبيل المثال ، موضوعون تحت حرف «ى» ذوو خصال معوجة ، على حين ان المرتبين تحت حرف « ا » ذوو عقول مخصبة ، ونفوس مستقيمة ، ولو كنت مكانك يا اخي لذهبت وتحققت هذا الامر بنفسي ، وكنت لا يقر لي قرار حتى أبصر هذا الشيء العجيب ، وكنت لا اغفل دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل ، لاتمكن من المقايسة بينها ، هذه واجبات تصلح لرجل دينى مثلك ، ولقد سمعت دون ريب ان « افرايم » رئيس الدير وضع قوانين روحانية على جانب كبير من الجمال فتستطيع وانت الكاتب النحرير ، ان تنسخها باذن منه ، اما انا فما كنت لاستطيع ذلك لان يدى ، وقد اعتادتا استخدام المعول ، تعوزهما المرونة اللازمة لتسيير قصبة الكاتب الرشيقة فوق صحائف البردى ، لكنك يا اخي تعرف قواعد الخط الجميل ، فلتحمد الله على ذلك الفضل العظيم ! ان عمل الناسك والقارىء هو اعظم واق من الخواطر الخبيثة ، فلماذا لا تدون يا اخي بافنوس تعاليم ابوينا بولس وانطوان ؟ بهذه الاعمال

الدينية ، تسترد شيئا فشيئا سكينة النفس وهدوء الحواس ، وستطيب لك الوحدة مرة اخرى فلا تلبث أن تصير في حالة فكرية تمكنك من العودة الى أعمال الزهد التى كنت تؤديها قبلما تعطلها رحلتك ، ولقد اعتاد ابونا انطوان ، لما كان بيننا ، أن يقول : « الافراط في الصوم يولد الضعف ، والضعف بسبب الجمود والتراخي ، فبعض الرهبان يتلفون اجسادهم بصيام مطول بغير تبصر ، فهؤلاء يصح ان يقال فيهم انهم يغمدون خنجرا في صدورهم ويسلمون انفسهم كالجمادات الى الشيطان » ، كذلك قال القديس انطوان : نعم ، لست سوى جاهل ، لكنى بنعمة الله قد وعيت قول ابينا ...

فشكر بافنوس للشيخ بالمون نصيحته ، ووعد بالتفكير فيها ، ولما تخطى السياج الذى يحيط بالبستان الصغير ، التفت وراءه فراى البستانى الصالح يروى خسه ، بينما كانت حمامة ، تترجح فوق ظهره المحنى ، وعندما استوعب بافنوس هذا المشهد ، كاد يجهش بالبكاء وراود الدمع جفونه ! ..

***

عاد الى صومعته ، فوجد هناك حشدا غريبا كانه حبات رمل سفاه ريح عاصف ، لم ميزه ، فاذا هو عشرات الالوف من بنات آوى ...

وفي تلك الليلة ، راى في حلم عمودا حجريا مرتفعا يعلوه وجه بشرى ، وسمع صوتا يقول :

ـ اصعد هذا العمود !

فلما استيقظ مقتنعا بان الحلم اتاه من السماء ، دعا تلاميذه وخاطبهم بهذه الكلمات :

ـ اولادى المحبوبين : انى تارككم الى حيث يرسلنى الله ، فاطيعوا في غيابي فلافيان كما تطيعونى ، واعتنوا باخينا بولس ، بارك الله فيكم ، استودعكم الله ...

فظلوا راكعين وهو يمعن في سيره ، ولما رفعوا رءوسهم ، راوا شبحه الطويل القائم على افق الرمال ...

***

سار نهارا وليلا حتى وصل الى خرائب ذلك المعبد الذى بشاه

الوثنيون قديما ، وبات فيه بين العقارب والجن اثناء رحلته العجيبة ، كانت الجدران المغطاة بالرموز السحرية لا تزال قائمة ، ثلاثون عمودا مائلا عليها رءوس بشرية ، او ازهار لوتس لا تزال تسند الحجارة الضخمة ، لكن في احد اطراف المعبد طرح احد هذه الاعمدة حمله القديم متخلصا منه ، وكان له تاج على شكل راس امراة باسمة ، بعينين نجلاوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها قرنا بقرة .

فلما رآه بافنوس عرف انه العمود الذى ظهر له في حلمه ، وقدر ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعا ، فذهب الى البلدة المجاورة ، وأوصى بصنع سلم بهذا الارتفاع ، ولما استند السلم الى العمود ، صعد وركع على القمة وخاطب الرب سبحانه :

ــ هنا اذن يا الهى المقام الذى اخترته لى ، ليتنى ابقى هنا في حماك ، حتى يحين حينى ، وتوافينى المنون .

لم يكن معه من الطعام شيء ، اذ كان متوكلا على العناية الالهية ، متوقعا أن يمده الفلاحون الكرام بما يقوته ، وحدث في عصر اليوم التالى ان بعض النساء والاولاد اتوه بتمر وماء اصعدهما اليه الصبيان حتى قمة العمود .

ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكن الراهب من التمدد بطوله كله ، فنام متربعا وراسه ملقى على صدره ، وكانت متاعب النوم لديه اشد من عذابات اليقظة ، وعند الفجر ، كانت البواشق تصفعه باجنحتها ليستيقظ متألما مرتاعا .

واتفق ان النجار الذى صنع السلم كان رجلا صالحا ، فقلق من جراء تعرض القديس للشمس والمطر ، واشفق عليه من خطر السقوط وهو مستغرق في نومه ، فاقام فوق العمود سقفا ، وركب حوله سياجا .

وما لبث صيت هذا المقام العجيب ان ذاع في البلاد ، واقبل عمال الوادى في ايام الآحاد مع نسائهم واولادهم ليشاهدوا « صاحب العمود » (1) ، ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزلته المرتفع ،

(1) توجد حكاية تاريخية من هذا النوع، قيل ان احد المتنسكين الانطيوخيين فوق قمة عمود حيث قضى نحو ثلاثين عاما ، ولقب بسمعان العمودى ، ولله في خلقه شئون ! — (المترجم)

احتشدوا بقربه ، واستأذنوه في بناء اكواخ لهم حول العمود ، وكانوا في كل صباح يقفون في دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه ، وهو يقول لهم :

اولادى ! ابقوا كالاطفال الذين احبهم المسيح ، ان اثم الجسد مصدر كل الخطايا وراسها ، انها تتوالد منه كانه اب لها ، فالكبر والشح والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة ، واليكم ما رايته في الاسكندرية : رايت الاغنياء مسوقين بنقيصة الترف ، وقد جرفتهم مثل نهر عكر ، الى دوامة بحر اجاج …

ولما بلغت الرئيسين افرايم وسرابيون حكاية هذه البدعة المستحدثة ، راما رؤيتها باعينهما ، فلما شاهدا بافنوس على بعد شراع المركب القادم بهما ، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثالا لجميع الزاهدين ، ولما رآه كبيرا الدير لم يخفيا دهشتهما ، فتشاورا ثم بدآ يلومانه على قيامه بمثل هذه الكفارة الخارقة للعادة ، وحثاه على النزول قائلين له :

ــ ان مثل هذا الضرب من الحياة مضاد للعرف ، وهو شاذ ومخالف للقوانين .

فاجابهما بافنوس :

ــ وهل حياة النسك الا حياة الشذوذ ؟ اليس من الواجب أن تكون اعمال الناسك فذة مثله ؟ اننى بوحى الهى صعدت الى هنا ، وبوحى منه تعالى انزل …

وكان النساك يأتون كل يوم فرقا لينضموا الى تلاميذ بافنوس وبنوا لانفسهم مأوى حول المنسك الجوى ، وصعد كثيرون منهم ، تشبها بالقديس ، فوق اطلال المعبد ، لكنهم ما لبثوا أن نزلوا اذ عنفهم اخوانهم ، ولهكم التعب فاقلعوا عن تلك المحاولات …

وجاء الحجاج من كل فج عميق ، وقدم بعضهم من بعد سحيق ، فكانوا جياعا عطاشا ، فخطر لارملة فقيرة أن تبيعهم ماء باردا وبطيخا ، فاستندت الى العمود ، ووقفت وراء قللها الحمراء وفاكهتها ، تحت خيمة مخططة باللونين الازرق والابيض ، واخذت تصيح : « يا ايها الظماء ! هو ذا الماء ! » ؛ فحذا حذوها خباز واحضر آجرا وبنى بجوارها مخبزا ، مؤملا أن يبيع الغرباء الخبز

والكعك ، ولما كان جمهور الزائرين في ازدياد مستمر ، واخذ سكان مدن مصر الكبرى يفدون تباعا ، شيد رجل آخر فندقا لنزول السادة وخدمهم وجمالهم وبغالهم ... وسرعان ما قامت امام العمود سوق أحضر اليها الصيادون اسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم ، وتم مزين يقص للناس شعرهم في الهواء الطلق ، ويسلي الجمهور باقواله الرائقة ، ونكاته الشائقة .

وما لبث المعبد العتيق الذي شملته السكينة والسلام دهرا طويلا ، أن امتلأ بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعهودة ، وحول الفندقيون المغاور الى قاعات تحت الارض سمروا بدعائمها المتهدمة اعلانات تعلوها صورة القديس بافنوس ، وعليها باليونانية والمصرية هذه الكلمات :

هنا يباع نبيذ التين والرمان وجعة « اذنة » الاصلية .

وعلى الحيطان المزدانة بنقوش متقنة جلية – علق الباعة البصل والسمك المشوى والارانب المذبوحة والاغنام المسلوخة ، وفي المساء انسلت الجرذان – ضيوف الخرائب القديمة – هاربة الى النهر ، واللعت الكراكي اعناقها وهي تنتقل بحذر وتردد فوق الطنوف العالية التي تصاعد اليها دخان المطابخ وعربدة السكارى وصياح السقاة ، وخطط الماسحون الشوارع ، وشيد البناءون الاديرة والمعابد والكنائس ، وما انقضت ستة اشهر ، حتى انشئت بلدة بمخفر ومحكمة وسجن ، ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى ...

وكان الحجاج لا عداد لهم ، وبينهم كثيرون من الطارنة وكبار رجال الدين ، أقبلوا وهم في غاية الاعجاب ، واتى بطريرك انطاكية الذي كان وقتئذ في مصر ، مصحوبا بجميع حاشيته ، فاستصوب كثيرا تصرف « صاحب العمود » الخارق العادة ، ووافقه على استحسانه رؤساء كنائس ليبية ، في غياب الناسيوس ، ولما علم بذلك افرايم وسرابيون ؛ اتيا يعتذران عما فرط منهما ، فاجابهما بافنوس :

– اعلما يا أخوي ان الكفارة التي اكابدها بالجهد تساوى التجارب التي تعرضت لها ، وقد هالني ما رأيت من كثرة عددها وشدة وطأتها ؛ ان الانسان يرى حسب الظاهر صغير الحجم ، ومن

قمة العمود حيث وضعني الله ، ارى بني البشر يروحون ويغدون كالنمل ، لكننا اذا امعنا النظر في الانسان من الباطن ، نجده عظيما جدا ، عظيما كالدنيا لانه يسعها ، هذه المشاهد المبسطة امامي – هذه الاديار والمنازل والسفن والقرى ، وما اراه على بعد من حقول وترع ورمال وجبال – ليست شيئا بالنسبة الى ما هو في ، ففي قلبي أحوى مدنا لا تعد ، وصحارى لا تحد ، والشر والموت ، يمتدان فوق هذا المتسع غير المحدود ، يدثرانه كما يدثر الليل الارض ، وفي انا وحدى عالم أفكار شريرة ...

قال هذا القول ، لان اشتهاء المرأة كان متسلطا عليه ، ممتزجا بلحمه ودمه ...

***

وفي الشهر السابع أتى اليه من الاسكندرية وكل بسطه وسائس ، نساء عاقرات ، يرجون أن يرزقن اولادا بشفاعته وبركة العمود ، تحككن خواصرهن بالحجر ، ثم اقبلت مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفات والنقالات ، وازدحمت حول العمود القائم عليه رجل الله ، وخرج منها مرضى في حالة مخيفة ، وعرضت الامهات على بافنوس اولادهن المصابين بالكساح والعمى والسعال الديكي والخناق وغيرها من العلل ، فوضع يديه عليهم ، واقترب منه العميان متلمسين ، واظهر له المفلوجون ما هم عليه من الشلل التام والسقم المميت وانقباض عضلاتهم البشع ، وأراه المقعدون ارجلهم المعوجة ، وامسكت النساء المصابات بالسرطان نهودهن ، وكشفن عن صدورهن التي افترسها الرحم الخفي ، وجئت امامه النساء المصابات بالاستسقاء ، وكن منتفخات كزق الخمر ، فباركهن كلهن ، وتقدم النوبيون المصابون بالبرص الفيلي بخطوات متثاقلة ونظروا اليه بعيون مخضلة بالدموع ، فرسم علامة الصليب فوقهم ، واحضروا اليه على نعش من بلدة « افروديتو – بوليس » بنتا صغيرة لفظت دما ونامت ثلاثة ايام كاملة فكانت كأنها صورة من الشمع ، وظن ابواها انها قضت نحبها فوضعا سعفة على صدرها ، فابتهل بافنوس الى الله فرفعت البنت رأسها وفتحت عينيها ...

فلما شاع بين الناس امر المعجزات التي عملها القديس ، اقبل

الجم الغفير من المصابين بالداء الذى اطلق عليه الاغريق اسم « المرض الالهى » من جميع انحاء مصر ، فما شاهدوا العمود حتى تشنجوا وتمرغوا على الارض واختبلوا وتكوروا ، ومما يكاد لا يصدق ان الحاضرين اصيبوا بدورهم بهذيان شديد ، والتووا كالمصروعين ، وتمرغ الكهنة والحجاج والرجال والنساء مختلطين بعضهم البعض ، والتوت اطرافهم ، وفاض الزبد من اشداقهم وهم يلتهمون التراب بالحفنات ويتثاءبون .

فشعر بافنوس ، من قمة عموده ، برعدة تتمشى فى اعضائه ، وصاح متجها الى الله :

ـ انا التيس المغضوب عليه ، حمال الذنوب ، احمل فى عنقى ادران هؤلاء الناس ، وهـذا يارب هو سبب امتلاء جسدى بالارواح الشريرة .

وكان كلما مضى مريض وقد شفى مما اصابه ، يحمله الحاضرون هاتفين هتاف الانتصار .

ولقـد علقت مئات العكازات حول العمود المعجز وعلقت عليه النساء الشاكرات اكاليل الزهر والصور المنذورة ، ودون فيه بعض الاغريق قطعا من الشعر البليغ ، ونقش عليه كل حاج اسمه حتى اصبح كله مغشيا بما لا يحصى من الحروف اللاتينية واليونانيـة والقبطية والفرجينية والعبرانية والسورية والسحرية .

***

وجاء عيد الفصح فتدفق على مدينة العجائب هذه سيل جارف من البشر حتى ان الطاعنين فى السن حسبوا انهم عادوا الى ايام الاسرار القديمة ، فكنت ترى فوق السهل الفسيح ، حلل المصريين المخططة وقد اختلطت ببرانس العرب ، وثياب النوبيين القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، واردية الرومان الطويلة ، وسراويل البرابرة القرمزية ، واثواب السرارى الذهبية ، وكانت النساء المحجبات يجتزن الطريق راكبات الحمير يتقدمهن خصيان سود يفسحون لهن بالعصى ، وفرش البهلوانيون على الارض سجادهم ، ولعبوا العابا مدهشة امام دائرة من المشاهدين الذين عاينوها وكان على رءوسهم الطير ، وعرض الحواة مشـاهد غريبة من الثعابين

والافاعى ، ومدوا اذرعهم ونشروا مناطقهم الحية ...

وهكذا كان حشد عظيم يضىء ويتألق ، ويعفر ، ويطنطن ، ويهدر ، ويجعجع ، فمن شتائم الجمالة وهم يجلدون جمالهم ، الى صياح التجار الذين كانوا يبيعون تعاويذ الوقاية من الجذام والاصابة بالعين ، الى ترانيم الرهبان وهم ينشدون آيات من الكتاب المقدس ، الى عواء المتسولين وهم يرددون اغانى الحريم القديمة ، الى ثغاء الغنم ، ونهيق الحمير ، ونداء البحارة والمسافرين الشياطين ـ هذه الاصوات كلها امتزجت بعضها ببعض فالفت ضجيجا يصم الآذان ، وزاد عليها زئاط اولاد الزنوج العراة الذين كانوا يجرون من مكان الى آخر يعرضون للبيع البلح الرطب .

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حشرت تحت السماء الصافية الاديم ، فى جو كثيف محمل بعطور النساء ، وطيب الزنوج ودخان الطهى ، وابخرة الصموغ التى اشتراها من الرعاة تقيات النساء ، ليحرقنها بخورا امام القديس .

ولما جن الليـل ، كانت النيران والشعل والمصابيح تضىء فى كل مكان ، فما كان ثمة شىء يرى سوى اظلال حمراء ، واشكال سوداء ، وقام فى وسط دائرة من المنصتين الجالسين القرفصاء ، شيخ هرم يمثل « خيال الظل » ، فقص حكاية احد القدماء الذى انتزع قلبه من صدره ودفنه فى جوف شجرة سنط ، ثم حول نفسه الى شجرة ! وعمل الرجل حركات كررها ظله بمبالغة مضحكة ، فهتف الحضور معجبين ، واضطجع السكارى فى الحانات على الارائك ، وطلبوا الجعة والنبيذ ، ومثلت امامهم راقصات مكتحلات العيون ، عاريات البطون ، بعض المشاهد الدينية والمناظر المحركة للشهوات ، وفى جانب آخر ، كان الشبان يلعبون النرد والرجال المسنون يتبعون البغايا فى الظلام .

وفوق هـذه الصورة المتحركة كان العمود وحده ثابتا ، وعليه بافنوس مراقبا ، بين السماء والارض ، وارتفع القمر فجاة فوق النيل كذراع الهة عار ، فسالت التلال باضواء زرقاء ، وخيل الى بافنوس انه يرى لحم تاييس مشرقا فى تألق المياه فى كبد الليـل الياقوتى ...

مرت الايام وظل القديس فوق عموده ، فلما اتى فصـــل الامطار اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جــسده ، فعجزت اعضاؤه المخدرة عن الحركة ، واحرقت الشمس جلده ، وحمره الندى فتشقق ، والتهمت القروح الكبيرة ذراعيه وساقيه ، بيد ان شهوة تايس ظلت تجيش فى داخله وترعى فى باطنه ، فصاح :

ـ ايها الرحمن ! هذا لا يكفى ! زدنى من التجارب والوساوس ! زدنى من الافكار الشريرة والشهوات الخبيثة ! ائتنى يارب شهوات الناس كلها كى اكفر عنها جميعا ! لست اصــدق ما سمعته من بعض الدجالين عن كلبة « اســبارطة » انها حملت خطايا العالم ، ولكن لهــذه الاســطورة معنى خفيا ادركه الآن ، لان آلام البشر تدخل حقيقة ارواح الاولياء لتغرق فيها كما فى هاوية ، وعلى هذا فنفوس الابرار مدنسة بادران ارجس جدا من التى فى نفوس الاشرار ، لهذا احمدك يا الهى واشكر فضلك لجعلك اياى بالوعة اقــذار الـكون ! ..

***

وحدث يوما ان انتشرت فى المدينة المقدســة اشاعة ذات شأن ، وبلغت الناسك ، وهى ان قائد اســطول الاسكندرية لوسيوس اوريلوس كوتا ـ قادم ... وعما قليل يصل ...

كانت الانباء صادقة ، وكان كوتا الشيخ ، الذى خرج يتفقد الترع والملاحة فى نهر النيل ، قد ابدى غير مرة رغبة فى مشاهدة « صاحب العمود » والمدينـــة الجديدة التى اطلق عليهــا اسم « ستيلوبوليس Stylopolis » .

وفى صباح احد الايام راى سكان « مدينة العمود » النهر مغطى بالاشرعة ، وظهر كوتا على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة بالارجوان ، يتبعه اسطوله الصغير ، فخرج يصحبه كاتم سره ، حاملا الواح كتاباته ، واريستيه طبيبه الذى كان يشجوه حديثه ، سار وراءه خــدم وحشم كثيرون ، وغطى الشــاطىء بالاردية الرومانية وبذلات الجند الرسمية ، فوقف على بضع خطوات من العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحا جبهته خلال ذلك بطرف وشاحه ولمـا كان طلعة بطبعه فقد لاحظ اشياء كثيرة فى رحلاته الطويلة حتى

لذكرها ، وعقد العزم على ان يكتب، بعد ان اتم التاريخ القرطاجنى، كتابا عن الاشيــاء العديدة التى رآها ، وبــدا عليه انه سر كثيرا بالمشهد الذى امامه ، قال ، وقد عرق ولهث :

ـ انه لشىء غريب ! وانها لحادثة تستحق ان تسجل ، فالرجــل كان ضيفا على يوما من الايام ، اجل !.. هذا الـكاهن تعشى معى فى العام المنصرم وبعدها خطف احدى المثلات .

ثم التفت الى كاتم سره ، وقال :

ـ سطر هذا يا بنى فى الواحى ، كذلك ودون قياس العمود ، ولا تغفل الاشارة الى شكل القمة .

ثم مسح جبينه ثانية ، وقال :

ـ لقد اكد لى الثقات ان كاهننا صعد فوق هذا العمود منذ سنة خلت ، ولم يغادره قط ، فهل هذا فى الامكان يا اريستيه ؟ ..

فاجاب اريستيه :

ـ انه فى امكان رجل معتوه او مريض ، لـكنه مستحيل على انسان متمتع بقواه العقلية والبدنية ، او لا تعلم يا لوسيوس ان امراض العقل والجسد تمنح احيانا المصابين بها قوة لا يتمتع بها الاصحاء ؟ الحق اقول انه لا وجود حقيقى للصحة الجيدة ولا للصحة الرديئة ، نعم .. توجد حالات متباينة لاعضاء البدن ، وقد اتضح لى من دراسة الامراض انها اشكال ضرورية للحياة ، وقد وجدت فى دراستها لذة اكبر مما فى محاربتها .

ومنها ما لايمكن اغفال الاعجاب به ، وهو ما يخفى تحت اختلاله الظاهرى ، اعمق النظامات وادقها ، كالحمى الرباعية مثلا (١) ، وفى بعض الاوقات تكون امراض الجسد وسيلة لترقيـــة خواص العقل ، وانى لاضرب لك مثلا « كريون » الذى كان فى صغره الـكن غبيا فصار بعد ان هشم جمجمته بسقوطه من سلم ، ذلك القانونى الضليع الذى تعرفه ، ولا بد ان يكون هذا الـكاهن مصابا فى بعض اعضائه الباطنية ، ومع ذلك فهو غير منفرد فى نوع معيشته كما يلوح لك يا لوسيوس ، تذكر مرتاضى الهند الذين يستطيعون

(١) التى تأتى كل اربعة ايام

البقاء بغير حراك البتة لا عاما واحدا ، وانما عشرين وثلاثين ، بل اربعين عاما ! ..

فاجاب كوتا :

ــ قسما بجوبيتر ان هــذا ضــلال مبين ، لان الانسان خلق ليعمل ، والجمود جريمة ، لانه مضر بالدولة ، وانى لا ادرى لاية ملة اعزو هــذه العادة المنحوسة ، ويحتمــل ان بعض المذاهب الاسيوية مسئول عنها ، لما كنت حاكما على سورية ، شــاهدت نصبا فى اروقة مدينة الحيرة ، وكان يعلوه رجل مرتين فى كل عام ، ويبقى فوقه سبعة ايام ، وكان الناس مقتنعين بان هــذا الرجل يتوسل للالهة بحديثه معها لتنزل على سورية المن والسلوى ، وقد استهجنت هذه العادة ، لكننى لم اعمل على ابطالها لانى ارى انه لا يجوز للحاكم ان يستاصل عادات أهل البلاد ، بل عليه أن يرعاها ، وليس للحكومة ان تلزم الناس عقيدة ، فان واجبها المحافظة على ما هو موجود منها ، سواء غثا كان أم سمينا ، فقد سنته روح الزمان والمكان والجماهير ، فاذا سعت الحكومة فى محاربة دين من الاديان ، ظهرت مظهر الثائر العاتى ، وكانت حرية بالبغضاء ، هذا فضلا عن ان السبيل الوحيد للترفع من خزعبلات العامة هو فهمها واباحتها ، وارى يا ارستيه ان اترك ساكن مدينة السحب هــذا فى الجو بسلام ، معرضا لشائم الطير وغزواتها وحدها ، وفائدتى ليست فى البطش به ، وانما فى استطلاع افكاره ، وما ملكت أيمانه وعقائده .

ثم نفخ ، وسعل ، ووضع يده على كتف كاتم سره ، وقال :

ــ دون يا بنى ان خطف العاهرات والجلوس على العمد يعدان عند بعض طوائف المسيحيين امرا محمودا ! ويمكنك ان تزيد ان هذه العادات دليل عبادة آلهة الشهوات ! ولكن علينا أن نســال الرجل نفسه فى هذا الموضوع .

ثم رفع راسه ، واظل عينيه بيده من الشمس ، وصاح :

ــ باعو ! يا بافنوس ! اذا كنت تتذكر انك كنت ضيفى ، فاجبنى : ماذا تصنع فى هــذا المكان ؟ لماذا صعدت حيث انت ولماذا تقيم ! واية دلالة لهذا العمود فى فكرك ؟

فلم يتنزل بافنوس لاجابة كوتا ، لانه كان يعده وثنيا ، لــكن

تلميذه فلافيان تقدم وقال :

ــ يا مولاى العلى الشان ! ان هــذا القديس يحمل خطايا العالم ويبرىء الامراض .

فصاح كوتا :

ــ يمينا بجوبيتر ! اسمعت يا ارستيه ؟ ان « ساكن مدينة السحب Le néphélo coccygien » يزاول الطب مثلك ! .. فماذا تقول فى هذا الزميل المعلى ؟

فهز ارستيه راسه وقال :

ــ يجوز انه يفوقنى فى شــفاء بعض الامراض ، مثــل الصرع المسمى بين العامة بالمرض الالهى ، وان تكن الامراض جميعها الهية على السواء ، لانها كلها تاتى من الالهة ، وللوهم تاثير فى هــذا المرض ، وانت ترى يا لوسيوس ان هــذا الكاهن ، الجاثم هكذا فوق راس العمود ، يؤثر فى اذهان المرضى تاثيرا اقوى من تاثيرى انا فى معمل عقاقيرى فوق هواوينى وقواريرى توجد يا لوسيوس قوى اشد باسا من العقل والمعرفة .

فساله كوتا :

ــ وما هى ؟ ..

فاجاب ارستيه :

ــ الجهل والحماقة .

فقال كوتا :

ــ ان ما اراه امامى الآن لمن الاشياء التى يندر انى رايت اشد منها شذوذا ، وآمل أن يروى يوما كاتب قدير قصة تشييد « مدينة العمود » . ولــكن لا يجوز للرجل الرزين العاقل ان يعاق حتى بالنظر المشاهد عن تادية واجباته ، هيا بنا نتفقــد الترع ، الوداع يا بافنوس الصالح ! او بالحرى الى الملتقى ! اذا حدث يــوما ان نزلت الى الارض وعدت الى الاسكندرية ، فارجو الا تنسى الحضور لتناول العشاء معى .

سمع الحاضرون هذه الــكلمات ، فتلقفها فم بعد فم ، واذاعها المسيحيون ورددوها ، فاضافت الى مجد بافنوس مجدا جديدا ، وقد زينت المخيلات الورعة هذه الــكلمات وعظمتها ، واشيع ان

القديس قد هدى ، من قمة عموده ، قائد الاسطول الى الايمان بالرسل وآباء « نيسيه » ، وضمن المسيحيون كلمات اوربانوس كونا الاخيرة معنى مجازيا ، فعدوا العشاء الذى دعا كونا الناسك اليه عشاء ربانيا ، وليمة روحية ، مائدة سماوية ! ! والبست قصة هذا اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة . كان الذين ابتدعوها أول من صدقها ! ! فقالوا انه لما اعتنق كونا الايمان بعد جدل طويل ، هبط ملك من السماء يمسح العرق عن جبينه ! وزعموا ان طيبه وكاتم سره اهتديا مثله .

ولما اشتهرت المعجزة ، دونها شماسة كنائس ليبيه الكبرى ضمن الوقائع الموثوق بصحتها ..

ومن ذلك الحين يمكن القول بلا تردد أن الدنيا من اقصاها الى اقصاها قد تملكتها الرغبة فى زيارة بافنوس ، وان كل المسيحيين فى الغرب ، كما فى الشرق ، ولوا ابصارهم الخاشعة شطره ، واوفدت اشهر مدن ايطاليا السفراء اليه ، وكتب اليه قيصر روما قسطانس التقى ، الذى ظاهر الارثوذكسية المسيحية ، كتابا قدمه القاصدون الرسوليون باحتفال مهيب ...

***

ففى احدى الليالى والمدينة راقدة فى الظل عند قدميه ، سمع بافنوس قائلا يقول :

ـ لقد صرت يا بافنوس شهيرا باعمالك ، قويا باقوالك ، لقد رفعك الله لرفعته ، واختارك لعمل المعجزات ، لتبرىء المرضى ، وتهدى الوثنيين ، وتنير الخاطئين ، وتزعج الجاحدين الاريوسيين ، وتعيد الى الكنيسة السلام ...

فاجاب بافنوس :

فلتكن مشيئة الله ! ..

فعاد الصوت يقول :

ـ قم يا بافنوس واذهب للقاء قسطنطوس الطاغية فى قصره ، لانه بدل أن يحتذى اخاه قسطانس فى حكمته ، مال الى ضلالة اريوس وماركوس ، اذهب ! سوف تفتح امامك الابواب النحاسية وسوف ترن نعلك فوق المشى الذهبى امام عرش القياصرة ،

وسوف يغير صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين ، ويمتد سلطانك على الكنيسة ، وكما تقود الروح الجسد ، كذلك تسود الكنيسة على الامبراطورية ، سوف تعلو يا بافنوس على الوجهاء والامراء والشرفاء ، سوف تضع حدا لجوع الناس وشراهتهم ، وعتو البرابرة وفظاعتهم ، وعندما يرى الشيخ كونا انك على راس الحكومة ، يبذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك ، وعند موتك يؤخذ ثوبك الوبرى الى بطريرك الاسكندرية اتاناسيوس الكبير الذى شاب فى المجد ، فيلثمه ويعده ذخرا من ولى حميد .. اذهب على الطائر الميمون !

فاجاب بافنوس :

ـ فلتكن ارادة الله !

ثم اجتهد فى الوقوف ، واستعد للنزول ، لكن صاحب الصوت ناجاه قائلا :

ـ اياك والنزول على السلم ! فهذا ما يفعله الرجل العادى ولا يليق بمواهبك ، قدر سلطانك باحسن من هذا يا بافنوس الملائكى ! ومن كان وليا قديسا مثلك يجب عليه أن يطير محلقا فى الجو .. اقفز ! ان الملائكة بانتظارك لتتلقاك فاقفز !

فاجاب بافنوس :

ـ لتكن مشيئة الله كما فى السماء كذلك على الارض !

ثم وازن ذراعيه الممدتين ، فكانا كجناحى طائر مريض عاريتين من الريش ، واوشك ان يقذف بنفسه ، فرنت فى الاذنيه قهقهة استهزاء مرعبة ، فسال وقد ارهقه الجزع :

ـ من ذا الذى يضحك هكذا ! ..

فدوى الصوت يقول :

ـ آه ! آه ! انا لا نزال فى بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوما آصرة المحبة بيننا فتعرفنى جيدا ، هو انا يا عزيزى الذى جعلك تصعد الى هنا ، ويحق لى ان ابدى سرورى باذعانك الذى انممت به جميع رغباتى ، فانا مسرور منك يا بافنوس

فتمتم بافنوس بصوت يتهدج من الخوف :

ـ الى الوراء ! الى الوراء ! لقد عرفتك ، انت .. انت الذى رفعت

المسيح على ذروة الهيكل وأرته جميع ممالك الدنيا (١)

وسقط على الحجر فزعا ، وفكر :

ـ لماذا لم اعرفه من قبل ! انني اشقى من اولئك العمى والصم والمفلوجين الذين ولعوا بي ، لقد فقدت كل دراية بالاشياء غير العادية ، وصرت شرا من المعتوهين الذين يأكلون التراب ويقربون جثث الموتى ، وعدت لا اميز ضجة جهنم من صوت السماء ، لقد عدمت كل فطنة ، حتى فطنة الطفل الرضيع الذي يبكي متى ما ؤخذ عن ثدي امه ، وفطنة الكلب الذي يقتفي اثر صاحبه بواسطة الشم ، والنبات الذي يتجه صوب الشمس ، فكنت اضحوكة الشياطين ، وكذلك كان ابليس هو الذي اتى بي الى هنا ، لما رفعني فوق هذا العمود ، صعدت معي الاهواء والكبرياء ، فليست تجاربي هي التي تهولني ، فقد كابد مثلها الطوان فوق جبله ، واود ان تعرق سوقها بدني امام اعين الملائكة ، نعم ! لقد توصلت الى اعزاز الامي ، غير ان الله صامت لا يبدي ولا يعيد ، وصمته يحيرني ويدهشني ، انه يتخلى عني وليس لي سواه ، انه يدعني وحيدا في مخاوف اعراضه ، انه يفر مني واني اروم الجري خلفه ، هذا الحجر يلهب قدمي بشواظ من نار ، فلأنطلق سريعا ، فلادركه ... وارق اسباب السموات لعلي ادرك الله ! ..

وللحال امسك بالسلم الذي كان قد بقي مستندا الى جانب العمود ، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فالفى نفسه مواجها رأس الوحش الذي ابتسم ابتسامة غريبة ، فتحقق ان المكان الذي اتخذه لسلامه ورفعته لم يكن سوى اداة جهنمية لرزئه المبرم ، فسارع في النزول الى الارض وزلت قدماه والتفت ساقاه وتمايلتا ، ولكنه وقد احس بثقل العمود فوقه اكره نفسه على الجري ، وكان الكرى قد اخذ يعقعد كل جفن ، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة بالحانات والنزل والفنادق ولم يره احد ، واندفع الى درب مؤد الى تلال ليبيه ، وتبعه كلب نابح لكنه وقف في مبتدى رمال الصحراء فلم يعدها ، وامعن بافنوس السير في بلاد مسالكها مغاور للوحوش الضارية ، وخلف وراءه الاكواخ التي

---

(١) يريد به الشيطان

هجرها مزيفو النقود ، وقضى في فراره الموحش ذلك الليل والنهار الذي تلاه .

اخيرا ، وقد بلغ به الجوع والظمأ والاعياء حد النزع ، وهو لايزال يجهل مبلغ بعد الله منه ، عثر على مدينة خيم عليها السكوت ، وقد انبسطت عن يمينه ويساره ممتدة امامه الى ما وراء الافق ، وكانت مساكنها متفصلة بعضها عن بعض ومتشابهة كأنها اهرام قطعت الى منتصف ارتفاعها ، تلك كانت اجداثا ، محطمة الابواب ، ومن خلال قاعدتها شخصت عيون الضباع والذئاب التي تطعم جراءها ، وعلى مدخلها جثث الموتى وقد عراها اللصوص ونهشتها الحيوانات المفترسة ، ولما اجتاز بافنوس هذه المدينة ـ مدينة الموتى ـ سقط منهوك القوى امام قبر منفرد بقرب ينبوع يظلله النخيل ، وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب وفي داخله حجرة مطوقة بالافاعي ، فتنهد قائلا :

ـ ههنا منزلي المختار ، هيكل توبتي وندامتي ، وخباء حسرتي والابتي .

ثم دلف اليه ، وطرد الصلال بقدميه ، ولبث ملقى على الحجارة ثماني عشرة ساعة ، ثم ذهب الى الينبوع وشرب منه براحة يده ، وجمع قليلا من التمر وبعض الحبوب من اغصان اللوتس فتقوتها ، واستصوب هذه العيشة فجرى عليها ، فما كان يرفع جبهته عن حجارة القبر من الصبح حتى المساء .

***

ففي ذات يوم اذ كان مطروحا على هذا الوجه سمع صوتا يقول له :

ـ تأمل في هذه الصور لتتعلم !

فلما رفع راسه راى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثل مشاهد مضحكة ومألوفة ، وكانت قديمة العهد وغاية في الاتقان ، بعضها يمثل طهاة ينفخون في النيران بخدود منتفخة ، وبعضها يمثل اناسا ينتفون ريش الاوز او يطبخون في الآنية شرائح الضأن ، وبقربهم صياد يحمل على كتفيه غزالة مزقتها السهام ، ومزارعون منهمكون بالزرع والحصاد ، ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناي

والعود ، وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتالق على شعرها الاسود المعقوص بشكل بديع ، وكان ثوبها الشفاف يمكن الناظر من رؤية تقاطيع جسدها الرائعة ، اما ثغرها وصدرها فقد نازعا الازهار بهاء الصنع وجمال التكوين . فلما تأمل بافنوس فيها ، غض من بصره واجاب « الصوت » بقوله :

— لماذا تامرني بمشاهدة هذه الصورة ؟ انها ولا شك تمثل الحياة الترابية للكافر الدفين هنا تحت قدمي ، في قاع جب ، في تابوت من صخر بركاني اسود ، انها تعيد حياة رجل ميت وتذكر به وهي على الرغم من ألوانها البراقة ليست سوى اظلال ظل ، حياة رجل ميت .. فيا الغرور ! ..

فرد عليه « الصوت » بهذه الكلمات :

— انه ميت ولكنه قد عاش ، وانت ستموت ولن تكون قد عشت

من ذلك اليوم لم يذق بافنوس طعم الراحة قط ، واستمر الصوت يكلمه بلا انقطاع ، ونظرت اليه الضاربة بالطنبور محدقة من تحت اهداب عينيها الطويلة ، ثم كلمته قائلة :

— انظر !.. اني خفية وحسناء ، فاحببني ، وافرغ في حضني الهوى الذي يضنيك ، ان خوفك لا يجديك نفعا ، ولن تستطيع الفرار مني ، أنا جمال المرأة ، فيا ايها المعتوه اين المفر ؟ سوف تجد صورتي في بهاء الازهار ، في اناقة النخيل ، وطيران الحمام ، وقفز الغزلان ، وتموج الغدران ، وضوء القمر ، واذا اغمضت عينيك ، وجدتني في سويداء قلبك وقرارة نفسك . منذ الف سنة شمتني الي صدره الرجل الراقد هنا ، ملفوفا باكفانه ، فوق مضجع من حجر اسود ، منذ الف سنة نعلى القبلة الاخيرة من فمي ولايزال رقاده معطرا بشذاها ، انك تعرفني يا بافنوس حق المعرفة ، فكيف تتجاهلني ؟ اني احد تجسدات تاييس التي لا تعد ، وانت راهب راسخ في العلم والمعرفة ، وقد سافرت ، والسفر خير معلم ، وكم من يوم يقضى في القرية وياتي بطرف وفوائد لا تنال في عشر سنوات تقضي في الوطن ، لقد طرق سمعك ان تاييس عاشت قديما في « اسبارطة » باسم « هيلانة » وكانت لها حياة اخرى في مدينة طيبة ، وانا التى كانت تاييس طيبة ، فكيف غاب عنك هذا الامر؟

لما كنت على قيد الحياة ، اشتركت في اكثر خطايا العالم ، والآن وان كنت لست سوى خيال ، لا ازال قادرة على الاشتراك في ذنوبك وحملها عنك ايها الراهب الحبيب ، فما مصدر دهشتك ؟ اينما تذهب ، تجد تاييس خنعا امامك .

فدق بافنوس جبهته بالحجارة وصرخ من شدة الفزع ، وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط في كل ليلة ، وتتقدم وتتكلم بصوت جلي ، ممزوج بانفاسها الباردة ، ولما قاوم القديس هذه التجارب كلها ، قالت له :

— ملك هواي فؤادك وأذعن لي ! ما دمت تقاومني فساعذبك وانكل بك ، انك لا تعرف مبلغ صبر امرأة ميتة ، سوف انتظر اذا لزم الامر حتى تموت ، وبوسعي ، لكوني ساحرة ، ان اضع في جثتك الهامدة روحا تعيد اليها الحياة فلا تابى اجابة ما رفضته الآن ، فكر يا بافنوس في غرابة موقفك عندما تنظر روحك السعيدة من علياء السماء فترى جثمانها يستسلم للخطيئة ! والله الذي وعد ان يرد اليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف تعتريه هو ايضا دهشة شديدة ! كيف يقدر ان يحل في مجد سماوي جسما بشريا يسكنه شيطان وترعاه ساحرة ؟ انك لم تحسب حساب هذه المشكلة ، وربما لم يحسب الله لها ايضا حسابا ، انه — والكلام بيني وبينك — ليس على شيء من الحذق والدهاء ، وان ابسط ساحرة لتخدعه بسهولة ، ولو لم تكن لديه رعده وجنادل سمائه ، لاخذه اطفال القرية بلحيته ، الحق انه ليس من الفطنة بمنزلة خصمه الثعبان المسن ، فهذا الاخير فنان عجيب ، ولست على هذا الحسن والجمال الا لانه اتقن زينتي ، وعلمني كيف اضفر شعري ، واجعل اصابعي كالورد ، واظفاري كالعقيق ، واراك قد استخففت به لما ابيت لتعيش في هذا القبر ، اذ اقصيت بقدميك الافاعي التي كانت هنا وسحقت بيضها ، ولم تبحث عنها لتعلم هل كانت من اسرته ، فاخشى يا صاحبي المسكين ان تكون قد سعيت الى حتفك بظلفك ، وعلى نفسها جنت براقش ! ومع ذلك فقد اندرت من قبل وجرى في علمك انه موسيقار عاشق ، فماذا فعلت ؟ انك تحديت العلم والجمال ، فما اشقى حظك واعثر

جدك ، اما « يهوه » فلن يجيء ليشد ازرك ، فهو ضخم بحجم الكائنات كلها ، فلا يستطيع التحرك لحاجته الى فضاء ، واذا اتى باقل حركة ، وهذا مستحيل ، انقلب الكون كله ... يا ناسكي الجميل ، هات قبلة

لم يكن بافنوس يجهل ما تاتى به فنون السحر من غريب الفعال ، فحدث نفسه ، وقد الح عليه الوهم والقلق :

— ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمي عارفا بسر الكلمات المسطورة في ذلك الكتاب المملوء بالالغاز ، في ضريح ملكي قريب من هنا ، فبفضل هذه الكلمات يتخذ الموتى الاشكال التي كانت لهم على ظهر الارض ، فيرون نور الشمس وبسمة المراة .

وكان اشد ما يخشاه أن تتعانق فتاة الطنبور والرجل الميت ، كما في الحياة ، فيراهما متلاصقين ... وخيل اليه احيانا انه سمع صوت قبلات خفيفة ...

ملك الاضطراب زمام امره ، والآن ، وقد تخلى عنه الله ، خاف الفكر كما خاف الشعور ، وفي احد الامسيات ، بينما كان ساجدا كعادته ، قال له صوت مجهول :

— بافنوس ! ان على سطح الارض من الناس اكثر مما تظن ، ولو اظهرت لك ما رايت لمت من الخبل ، فمنهم رجال لهم عين واحدة في وسط جباههم ، ورجال لهم ساق واحدة يحجلون بدل المشي ، ورجال من شجر تنمو جذوره في الارض ، ورجال يغيرون اجناسهم ، واناث يصرن ذكورا ، ورجال بغير رءوس ولهم ايضا عينان وانف وفم في صدورهم — فهل تصدق ، بذمتك ، ان المسيح قد مات لاجل خلاص هؤلاء الناس ؟

وراى مرة اخرى رؤيا ، راى في نور ساطع جسرا وجداول وحدائق ، وكان على الجسر اريستوبول وشيراس يركضان جواديهما السوريين ، وقد صبغ حب السباق وجناتهما بالاحمرار ، وكان الشاعر كاليكرات ينشد اشعاره تحت ايوان ، والكبرياء الراضية تتهدج في صوته وتشرق من عينيه ، وكان زينوتيميس في بستان يجمع تفاحا ذهبيا ، ويلاطف ثعبانا ذا جناحين لازورديين ، وهيرمودور يفكر تحت شجرة ليخ مقدسة تحمل بدل الازهار رءوسا

بشرية صغيرة ، اشرقت وجوهها وازينت كمعبودات المصريين ، ونسورا وصقورا ، وقرص قمر متالق ، بينما كان نسياس على حافة ينبوع يدرس ، فوق فلك حلقي ، حركات الكواكب المنتظمة ..

وعندئذ اقتربت من الراهب امراة مقنعة تحمل في يدها غصنا من الريحان ، وقالت له :

— انظر ! البعض ينشد الجمال الخالد ويطلب تأبيد حياته الفانية ، والآخرون قليلو الاكتراث ، ولكنهم باستسلامهم هذا وحده للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوي جمال وفي رغد من العيش يمجدون مبدع جميع الكائنات ، فالانسان هو انشودة مطربة من اناشيد الله ، وتراهم جميعا يعدون السعادة جائزة والهناءة مباحة ، فاذا كانوا على حق صادقين ، فلشد ما تكون يا بافنوس غرا غافلا .

ثم زالت الرؤيا ...

***

وهكذا حاربت بافنوس التجارب والغوايات في جسده وعقله حربا لا هدنة فيها ، لم يدعه ابليس طرفة عين مستريحا ، وكانت وحدة ذلك القبر اعمر الناس من مفارق الطرق في مدينة كبيرة ، وضج الشياطين من حوله بالقهقهات المرتفعة ، وقامت هناك ملايين من اشباح الموتى باعمال الحياة العادية ، ولما مضى في المساء الى الينبوع ، رقصت حوله المخروطات مختلطات بالهات الحقول ، وقذفنه في دورانهن الفاسق ، وعادت الشياطين لا تخشاه ، واقلقت عليه بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة واللعنات واللطمات ، وسرق منه يوما شيطان ، لا يزيد طوله عن طول ذراعه ، الحبل الذي يتمنطق به فناجى نفسه بقوله :

— ايها الفكر ، الى اين اقتدتني ؟ ..

فصمم على ان يشتغل بيديه ، كي يمكن عقله من الراحة التي كانت تعوزه ، وكان بقرب الينبوع اشجار موز كبيرة الورق نامية في ظل النخيل ، فقطع جذوعها وحملها الى القبر حيث سحقها بحجر وحولها الى الياف او خيوط دقيقة مثلما شاهد صانعي الحبال يعملون ، لانه ارتأى صنع حبل بدل الذي سرقه الشيطان منه ، فاحس الشياطين ببعض الانزعاج وكفوا عن ضجيجهم ،

واقلعت فتاة الطنبور عن السحر ، واستكنت على الجدار الملون ، وشدد بافنوس شجاعته وايمانه وهو يدق سيقان الوز ، وحدث نفسه بما يأتي :

— سأغلب بعون الله على الجسد ، اما الروح فقد احتفظت بالرجاء ، وعبثا تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنمية ان تدخل على نفسي الشكوك في طبيعة الله ، سأجيبها بلسان يوحنا الرسول : « في البدء كان الكلمة ، وكان الكلمة الله » ، ان ايماني بهذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وان كان هذا الذي أومن به لغوا باطلا زدت ايماني به رسوخا وثباتا ، بل انه يجب ان يكون لغوا باطلا ولو لم يكن كذلك لما كنت لأومن به بل كنت اعرفه ، فالآن لا تمنح المعرفة الحياة ولكن الايمان وحده هو الذي ينقذ .

عرض الاياف المبتلة للشمس والندى ، وعنى في كل صباح بتقليبها فلا تتعفن ، وسر باحساسه بان سذاجة الطفولة قد انبعثت في نفسه ، ولما جفل الحبل قطع الخوص ليصنع منه حصرا وسلالا ، فاشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال ، واستطاع بافنوس ان ينتقل فيها بسهولة من العمل الى الصلاة ، بيد ان الله تعالى كان لايزال معرضا عنه ، لانه استيقظ في احدى الليالي على صوت للجت بسماعه اطرافه رعبا ، اذ عرف فيه صوت الرجل الميت . . .

دعا الصوت مستعجلا بهمس خفيف :

— هيلين ! يا هيلين ! تعالي استحمي معي ، تعالي سريعا !

فاجابته امرأة لامس فمها اذن الراهب :

— لا استطيع النهوض ياحبيبي ، ان رجلا راقدا فوق صدري .

فاحس بافنوس فجاة بخده وقد استقر على ثدي امرأة ، عرف انها الضاربة بالطنبور ، ولكنها تخلصت قليلا ورفعت صدرها ، فتعلق بافنوس تعلق اليائس بالجسد الناعم ، الدافىء ، العطر ، وصاح وقد اشتدت به منية القضاء المبرم والرغبة في الموت الزؤام :

— ابقي ، ابقي يا سمائي

لكنها كانت اذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وقضضت

أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت :

— وماذا يفيدك بقائي ؟ ان ظل الظل يكفي عاشقا مثلك وهب له مثل هذا الحدس النير ، فضلا من انك قد أثمت ، ففيم ترغب بعد ذلك ؟ وداعا ! ان عشيقي يناديني . . .

فقضى بافنوس الليل في بكاء ونحيب ، ولما لاح الفجر ، فاه بضراعة أرق من شكاية ، وقال :

— يا يسوع ! ياسيدي يسوع ! لماذا تتخلى عني ؟ انك ترى الخطر المحدق بي ، فتعال شد ازري ايها المخلص الحليم ، هو ذا ابوك أصبح لا يحبني ولا يسمعني ، فاذكر انه لم يعد لي سواك ، انه لا يرجى منه شيء لي ، انني لا استطيع ادراك كنهه ، وهو لا يرق لحالي ، لكنك ولدت من امرأة ، وهذا ما يجعلني اطمئن اليك ، وارجو الخير على يديك ، تذكر انك كنت بشرا ، انني أضرع اليك لا لانك نور من نور ، واله حق من اله حق ، بل لانك عشت معدما وضعيفا على هذه الارض حيث اشقى واعاني ، ولان الشيطان جرب جسدك ، ولان عرق النزع تلج جبينك ، لانسانيتك يا معلم الانسانية أصلي وأتوسل ، يا سيدي يسوع ، يا أخي يسوع ! . .

ولما فرغ من ابتهاله ، وقلب كفيه ، اهتزت جدران القبر بقهقهات مهيبة متتابعة ، وقال له الصوت الذي سمعه فوق قمة العمود ، باستهزاء :

— ان هذا الدعاء جدير بصلوات ماركوس الضال ، ان بافنوس أريوسي (١) بافنوس أريوسي !

فكانما انقضت صاعقة على الراهب ، فخر مغشيا عليه . . .

***

لما أفاق بافنوس وفتح عينيه ، رأى حوله رهبانا في حلل سوداء ، وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف كثيرون منهم خارج القبر حاملين سعف النخل .

قال له أحدهم :

— سمعنا ، ونحن نجتاز الصحراء ، صيحات مرتفعة من هذا القبر ، فدخلنا ، فالفيناك طريحا فوق الحجارة مغمى عليك ، ولا

(١) الاريوسي هو من ينكر لاهوت المسيح عليه السلام

وبب ان الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدنونا ولوا هاربين ...

فرفع بافنوس رأسه ، وسأل بصوت خافت :

— من انتم يا اخوانى ؟ ولماذا تحملون سعف النخل ؟ او ليس هذا لاجل دفنى ؟

فأجاب أحدهم :

— الا تعلم يا أخى ان ابانا انطوان ، وقد بلغ من العمر خمسا بعد المائة ، قد اتاه نذير بأن نهايته دنت ، فنزل من جبل كلزان ، حيث كان معتزلا ، ليبارك أبناءه الروحيين الكثيرين ، فها نحن أولاء ذاهبون نحمل السعف لتلقى ابانا الروحى ، فكيف بقيت جاهلا مثل هذا الحادث الجلل ؟ ألم يأت الى هذا القبر ملك لينبئك ؟

فأجاب بافنوس :

— وا أسفاه ! لست جديرا بمثل هذا الفضل العظيم ، وليس سكان هذا الربع سوى عفاريت ووطاويط ، صلوا من أجلى ، انا بافنوس ، كبير رهبان أنصينا ، أشقى عباد الله ...

فلما سمعوا اسم «بافنوس» هزوا سعفهم ، ورددوا التسابيح ، وصاح الذى تكلم من قبل ، متعجبا :

— أفيمكن ان تكون أنت بافنوس ذلك القديس الذائع الصيت بأعماله ، حتى ان الناس يعدونه بالغا يوما فى الفضل مبلغ انطوان العظيم ؟ يا أقدس قديس انك أنت الذى هدى العاهرة تاييس الصراط المستقيم ، وأنت الذى اذ صعد على عمود عال حملته الملائكة ، فرأى الذين يخفرون العمود ليلا انتقالك الميمون الى السماء ، وقد احاطت بك أجنحة الملائكة فى سحابة بيضاء ، وامتدت يدك اليمنى وباركت مساكن البشر ، وفى صباح اليوم التالى اذ لم يرك الناس ، ارتفع أنين طويل الى العمود غير المتوج ، على ان تلميذك فلافيان أذاع المعجزة وقام مقامك فى تولى شئون الرهبان ، لكن رجلا واحدا ساذجا يدعى بولس ، حاول ان ينقض ما أجمعت عليه الآراء ، فقد أكد أنه رآك فى حلم محمولا بالشياطين ... فأراد الناس ان يرجموه ، وقد نجا من الموت بأعجوبة ، وأنا « زوزيمس » رئيس هؤلاء المتنسكين الساجدين عند قدميك ، أركع

أمامك مثلهم ، كى تبارك الاب مع الابناء ثم تخبرنا بالعجائب التى أنعم الله عليك بأن اجراها على يديك ...

فأجاب بافنوس :

— لست استحق شيئا مما وصفتنى به ، فان الرب قد بلانى بأهول التجارب ، ولم تحملنى الملائكة ، بل ان حائطا من الظل قام أمام ناظرى وتقدمنى ... لقد عشت فى حلم ، وكل شىء من دون الله حلم ، لما شخصت الى الاسكندرية سمعت فى بضع ساعات خطبا كثيرة ، وعرفت ان جيش الضلال لا عدد له ، وقد طاردنى ، وأحاطت بى سيوفه ...

فأجاب زوزيمس :

— علينا أن نذكر يا أبى الموقر ، ان الاولياء ، لاسيما المتنسكون منهم ، يعرضون لتجارب مخيفة ، واذا لم تكن اذرع الملائكة قد حملتك الى السماء ، فمن المحقق ان الرب قد أنعم بهذا الفضل على صورتك ، اذ كان فلافيان والرهبان والناس شهودا على صعودك الى السماء .

فعزم بافنوس على الذهاب لتلقى بركة انطوان ، وقال :

— اعطنى يا أخى زوزيمس سعفة ، ولنتوجه للقاء أبينا ...

فأجاب زوزيمس :

— هيا بنا ! ان الاوامر العسكرية تلائم الرهبان ، الذين هم جنود قبل كل شىء ، ولأننا كلانا رئيسان فنسير فى المقدمة ، وأولاء يتبعوننا وهم يرتلون المزامير .

بدأوا السير ، وقال بافنوس :

— الله أحد ، لانه الحق الذى هو واحد ، والدنيا شتى ، لانها فى ضلال ، على المرء ان يعرض عن مشاهد الطبيعة كلها حتى التى تظهر انها غاية فى الطهارة والبراءة ، فتنوعها الذى يزينها لنا انما هو دليل على شرها المستطير ، انا لا أقدر على رؤية حزمة من البردى فوق المياه الراكدة بغير ان تتشعب نفسى الهموم وتساورنى الكآبة ، كل شىء تحس به المشاعر وتدركه قبيح كريه ، أصغر حبة من الرمل ذات خطر شديد ، كل شىء يفتننا ويصيبنا بالاحن والنكبات ، وما المرأة الا مزيج من كل هذه الغوايات السابحة فى

النسمات الرائقة ، وعلى الارض المزهرة ، وفى المياه الصافية فطوبى لمن تكون روحه وعاء مختوما ! طوبى لمن يعرف كيف يكون اصم وابكم واعمى ، ولا يدرك كنه شىء فى الدنيا ، ليدرك كنه الله !

ففكر زوزيمس فى هذا الكلام ، واجابه بقوله :

ـ ينبغى لى يا ابى المحترم أن اقر لك باثامى ما دمت قد كشفت لى عن ذات نفسك ، وهكذا يعترف كل منا للاخر طبقا للعادة الرسولية ، لقد حييت قبلما ارهب حياة الرذيلة ، ضربت فى ارجاء «مادورا» وهى مدينة مشهورة بغوانيها ، وبحثت عن صنوف التمتع وضروب التلذذ ، وكنت فى كل ليلة اتعشى مع بنات الهوى والقينات العازفات بالناى ، وآخذ الى بيتى من تستهوينى منهن ، وليس فى وسع قديس مثلك ان يتصور مطلقا الى اى درك هوت

بى شهواتى ، يكفينى ان اقول لك اننى لم اغادر كهلة صالحة او راهبة ، فاتيت المنكر ، وارتكبت كل محظور ومحرم وقد هيجت حرارة مشاعرى بالخمر ، حتى شهد لى أهل مادورا باننى اشد السكيرين اغراقا فى رشف بنت الحان ، واقدرهم على استفراغ

الدنان ، ومع ذلك كنت مسيحيا ، واحتفظت مع كل حماقاتى وضلالاتى بايمانى بالمسيح المصلوب ، واخيرا ، استغرقت عيشة الخلاعة والاسراف كل مالى ، وبدات اشعر بقضض الفاقة ، واذا بى ارى احد رفقاء مسراتى قد اصيب فجاة بداء عضال فظيع ، فلم

تعد ركبتاه تقويان على حمله ، وعصته يداه المرتعشتان ، واغمضت عيناه الخابيتان ، فما كانت تصدر من حلقه الا تأوهات مروعة وكل ذهنه ، فهجع ، اذ مسخه الله حيوانا تنكيلا به لانه عاش كالحيوان ولقد كان لى فى ضياع مالى تبصرة نافعة ، لكن مثل صديقى كان

ابلغ وانفع ، واثر فى نفسى بحيث جعلنى اترك الدنيا على الفور واتروى فى الصحراء ، وفيها تمتعت عشرين حولا بسلام لم يكدر صفوه شىء قط ، فكنت أعمل مع رهبانى حائكا ، وبناء ، ونجارا ، وكاتبا ، مع انه والحق يقال لم يكن لى نحو الكتابة الا ميل ضئيل ، اذ آثرت دائما العمل على القول ، وفضلت الفعل على الفكر ، وها هى ايامى ملؤها الفرح ، ولياليَّ بغير احلام ، وانى لاعد نعم الله تعالى على فلا احصيها ، لاننى احتفظت بالامل حتى فى ابان أشد المعاصى هولا ...

فلما سمع بالمتوس هذا القول ، رفع بصره الى السماء ، وتمتم :

ـ ارحم يارب هذا الرجل المدنس بهذه الخطايا كلها ، ارحم هذا الزانى ، انكلا بعين رعايتك هذا المنتهك للحرمات ، ثم تعرض عنى انا الذى كنت ائتمر بامرك ، وانتهى بنهيك ! لا ما اشد غموض عدالتك يا الهى ! وما أبعد طرقك عن الادراك

فمد زوزيمس ذراعيه قائلا :

ـ انظر يا ابى الموقر ، ترى على جانبى الافق صفوفا طويلة سوداء كانها نمل راحل ، اولئك اخوتنا ذاهبون مثلنا للقاء انطوان.

ولما وصلوا الى الملتقى ، راوا مشهدا بديعا ، كان جيش النساك يمتد ثلاثة صفوف فى نصف دائرة كبيرة ، فالصف الاول يتالف من سكان الصحراء الاقدمين ، بايديهم الصلبان وقد تدلت لحاهم الى الارض ، والصف الثانى من الرهبان الذين تحت امرة « افرايم » و « سرابيون » ومعهم نساك النيل ، ووقف وراءهم الزاهدون الذين توافدوا من معاقلهم النائية ، وارتدى بعضهم اطمارا لا تكاد تستر اجسادهم السوداء الذابلة ، وكان كثيرون منهم عراة غير ان الله قد كساهم شعرا كثيفا كجزة الغنم ، وكانوا جميعا يحملون السعوف الخضر فى ايديهم ، فاشبهوا قوس قزح من زمرد ، ويصح تشبيههم بفرقة المرتلين المجتبين ، او بجدران حية من مدينة الله ...

وكان المحفل منظما تنظيما تاما ، حتى ان بافنوس لم يجد اقل صعوبة فى العثور على مرءوسيه من الرهبان ، فاتخذ مكانا بقربهم بعدما احتاط فى اخفاء وجهه بمحابه ليبقى مجهولا عندهم ولا يكدر عليهم ترقبهم الدينى ، وبغتة ، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء .

ـ القديس ! القديس « هو ذا » الولى العظيم ! هو ذا حبيب الله الذى لم تتغلب عليه جهنم ! ابونا انطوان

ثم ساد السكوت ، والتصقت كل الجباه بالرمال ، فتقدم انطوان من قمة اكمة فى الصحراء ، يسنده تلميذاه المحبوبان : ماكاريوس واماتاس ، وسار الهوينى منتصب القامة ، يشعر الناظر اليه بان فيه بقية من قوة فائقة ، وقد سترت لحيته البيضاء صدره

العريش ، وانعكس من جمجمته المصقولة اللامعة شعاع النور كما من جبين موسى ، وكان لعينيه نظر النسر ، وعلى فمه بسمة الطفل ، فبارك قومه بأن رفع ذراعيه اللتين أوهنهما عمل شاق مدة قرن كامل ، وجهر صوته ، لآخر مرة ، بكلمات المحبة الآتية :

— ما أجمل خيامك يا يعقوب ! وأخبيتك يا اسرائيل !

فارتفعت في الحال من أقصى الحائط الحي الى الفضاء ، مثل قصف الرعد المتوازن ، أنشودة : « طوبى للذي يخاف الرب » .

ثم تفقد انطوان مع ماكاريوس واماناس صفوف الشيوخ والرهبان والنساك ، هذا الرجل الذي رأى السماء وجهنم ، هذا الزاهد الذي حكم الكنيسة المسيحية من قلب معتله ، هذا القديس الذي ثبت يقين الشهداء في أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتي الذي صعقت فصاحته أهل الضلال ، أخذ يخاطب أبناءه واحداً بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً في عشية ميتته السعيدة التي وعده بها الله الذي أحبه .

قال للرئيسين افرايم وسرابيون :

— انكما تقودان الجيوش الجرارة ، وكلاكما ماهر ومدرب في فنون الحرب ، لذلك سوف تتقلدان في السماء سلاحاً ذهبياً ، ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدي قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عانقه وقال :

— هذا أعز أولادي وأفضلهم جميعاً ، لروحه شذى عطري كأريج زهر الفول الذي يزرعه في كل عام .

ووجه الى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات :

— انك لم تقنط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك وعليك ، وقد ازهرت زنبقة فضائلك على سماء فسقك .

وكان كلامه مع كل منهم مملوءاً حكمة وارشاداً .

قال للشيوخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً في ثياب بيضاء ، وعلى رءوسهم التيجان .

وقال للشبان :

— افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوي ، يمحض النصح ، ويبذل العظات ، فلما رآه بافنوس يقترب منه ، خر ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة :

— أبتاه ! أبتاه ! أبتاه ! أغثني فاني من الهالكين ، لقد وهبت روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفي قاع قبر ، فتصلبت جبهتي من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل ، ومع ذلك لايزال الله معرضاً عني ، باركني يا أبت فانجو هز الزوفى فأطهر وأعود نقياً ألالاً كالثلج .

فلم يجبه انطوان ، بل رشق رهبان أنصينا بتلك النظرة التي ما كان بوسع أحد الثبات أمامها ... ثم استقر ناظراه على بولس الملقب بالساذج ، فحملق اليه طويلاً ، ثم أشار اليه بالدنو منه ، ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال انطوان :

— ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم ، ارفع بصرك يا ولدي بولس ، وأخبرنا بما تراه في السماء .

فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ، فقال :

— أرى في السماء سريراً مزداناً بستوف من أرجوان وذهب ، تحيط به ثلاث عذارى ، ساهرات على حفظه ، كيلا تقرب منه روح غير الروح المجتباة التي أعد لها السرير ...

فبادر بافنوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير يرمز الى تمجيده ، لكن انطوان أشار اليه بالصمت والاصغاء للساذج الذي تمتم في ذهول الانجذاب ، قائلاً :

— العذارى الثلاث يخاطبنني قائلات : « ان قديسة على أهبة مفارقة الارض ، تاييس الاسكندرية على وشك الموت ، وقد أعددنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها :

« الايمان . والخوف . والحب »

قال انطوان :

— وماذا ترى أيضاً يابني الحبيب ؟

فنظر بولس بيله ، من سمت الرأس الى سمت القدم ، ومن

المغرب الى المشرق ، ثم وقع ناظراه فجاة على كاهن انصينا ، فشحب وجهه من جزع قدسى ، وعكست حدقتاه لهبا خفيا ، وقال :

— ارى ثلاثة ربانية قد امتلأوا فرحا ، واستعدوا لقبض هذا الرجل ، وهم يشبهون برجا وامراة وساحرا ، والثلاثة يحملون اسماءهم موسومة بميسم من حديد حام ، الاول على جبينه ، والثانى على بطنه ، والثالث على صدره ، واسماؤهم هى : « الكبرياء ، والانغماس فى الملذات ، والشك » .

لقد رايت هذا كله .

ثم عاد بولس الى حالته الاولى من البساطة ، بعينيه الغائرتين ، وحنكه المعلق .

ولما نظر رهبان انصينا الى انطوان بقلق ، فاه القديس بهذه الكلمات :

— قد اعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ونحن سكوت .

ثم سار وهو يبارك الجموع ، وكانت الشمس قد بلغت الافق ، فرملته بالمجد ، وامتد ظله خلفه — بمنة من السماء — امتدادا عظيما كبساط لا آخر له ، رمزا الى التذكار الطويل الامد الذى سيخلفه هذا الولى العظيم بين البشر ...

***

اما بافنوس فقد وقف مصعوقا ، ولم ير ولم يسمع شيئا غير الكلمات التى ملات وحدها اذنيه ، وكانت : « تاييس على وشك الموت ! » ، لم يخطر بباله قط مثل هذا الفكر ، فطى عشرين سنة يتامل فى رأس مومياء ، ومع ذلك ادهشه تصور ان الموت يغمض عينى تاييس !

« تاييس على وشك الموت ! » قول غير معقول ! « تاييس على وشك الموت ! » يا لشدة الهول المروع فى هذه الكلمات الاربع ! « تاييس على وشك الموت ! » اذن فما الحاجة للشمس والازهار والغدران والبرايا جميعا ؟ « تاييس على وشك الموت ! » فما فائدة الكون ؟

ثم وثب فجاة صارخا : « اذهب لتراها ، لتراها مرة اخرى ! » واخذ يعدو ، ولم يدر اين هو ، ولا الى اين يذهب ، لكن

الوجدان قاده وسدد خطاه ، فسار راسا الى النيل ، وكان سطحه مغشيا بشرع المراكب فقفز الى ظهر سفينة لبعض النوبيين ، وهناك انطلع فى مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

— يا لى من مجنون معتوه ، لانى لم احظ بتاييس لما سمح الزمان ! يالما اشد حماقتى لانى اعتقدت أن فى الدنيا شيئا سواها ! يا ويح الجنون ! لقد فكرت فى الله ، وفى خلاص نفسى ، وفى الحياة الابدية ، كانما كل هذه تعد شيئا مذكورا جنب رؤية تاييس ،

كيف لم ادرك ان السعادة الابدية انما هى فى قبلة واحدة من قبلاتها ، وان الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج ؟ يا لك من غبى اخرق ، تراها ثم لا تفتا ترغب فى طيبات عالم ثان ؟ يالك من نذل جبان ، تراها وتخشى الله ! الله ! السماء ! ما هما

وما نصيبى منهما ؟ وهل يساوى ما يمنحانه لى اقل جزء مما كانت ستمنحه لى تاييس ؟ اف لك من معتوه سخيف بحث من رافة الله وطلبها فى كل مكان الا على شفتى تاييس ! اية يد غطت عينيك ، الا فليكن ملعونا ذلك الذى اعماك حينذاك ! كنت تستطيع أن تشترى

بثمن قصاص الآخرة لحظة من حبها والتمتع بها فلم تفعل ! لقد فتحت لك ذراعيها ، المفطورتين من لحم ممتزج بعطر الزهر ، ولم تنل لذة الغرق فى حضنها ، والاستناد الى صدرها العارى الذى لا يوصف !

لقد اصخت الى الصوت الحسود الذى قال لك : « اعرض عن هذا » ، فيالك من مغفل ، مغفل شقى ! آه يا للحسرات ! يا للندامات ، اواه يا لليأس ، يا لخيبة الامل ! لحرمانى ان احمل الى

الجحيم ذكرى تلك الساعة التى لا تنسى ولا تمحى !.. صارخا الى الله : « احرق لحمى ! جفف الدماء التى فى عروقى ، اسحق عظامى ، غير انك لن تستطيع ان تنتزع منى التذكار الذى يعطرنى وينعشنى للابد ، والى الابد !.. ليتك يا الله تعلم كم اسخر من جهنمك ! تاييس على وشك الموت ، فلن تكون لى ابدا ؟ ابدا ، ابدا » .

وبينا السفينة تتبع التيار السريع ، لبث طوال ايامه منكبا على وجهه ، يكرر :

ـ ابدا ! ابدا ! ابدا !

ولما ذكر انها وهبت نفسها للجميع الا له ، وانها سكبت على العالم مياه الغرام ، وهو وحده لم يبلل منها شفتيه ، وقف في حالة عتو ونفور ، وولول حزنا ، ونشج توجعا ، ومزق صدره باظفاره ، وعض زنديه ، وحدث نفسه :

ـ ليتني اجد سبيلا الى قتل من احبتهم اجمعين .

فملأته فكرة هذا التقتيل بحميا لذيذة وحنق عذب ، ففكر في ذبح نسياس ، على مهل رويدا رويدا ، بينا هو يحدق في قرارة ناظريه ، ثم ما لبثت حميته أن خمدت فجأة فبكى وتأوه ، ووهن العظم منه ، فارتد ضعيفا وديعا ، وسكن اضطراب نفسه حنو مجهول ، وتملكته رغبة الارتماء على عنق رفيق صباه ، ليقول له :

« نسياس اني احبك لانك احببتها ، حدثني عنها ! اخبرني بما قالته لك » ....

وكانت مرارة تلك الجملة : « تاييس على وشك الموت ! » لا تزال عالقة بنياط قلبه :

ـ يا انوار النهار المسجدية ! يا اظلال الليل الفضية ! ايتها النجوم ! ايتها السموات ! أيتها الاشجار المرتعشة قممها ! أيتها الوحوش الضارية ! ايتها الحيوانات الاليفة ! يا نفوس الرجال المتلهفة ! الا تسمعون ! « تاييس على وشك الموت ! » ، ايتها الانوار الساطعة والانفاس الصاعدة ، والعطور الطيبة ـ امحي وافنى ! يا بهاء الكون ورواءه ، واشكاله وافكاره ـ اختفى واختبى !

« تاييس على وشك الموت ! » تاييس كانت جمال العالم ، ينعكس حسنها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين ... ما كان الطف ذلك الشيخ الهرم ، واولئك الحكماء الذين جلسوا بقربها في مادبة الاسكندرية ! ما كان امتع حديثهم وارقه ! ان سربا من الضحكات الرائقة حام حول شفاههم ، وضمخ السرور خواطرهم ، ولان انفاس تاييس هبت عليهم ، فكل ماقالوه فاح حبا ، وجمالا ، وحقا . ولقد خلع الالحاد الجميل على اقوالهم ثوب ملاحته ، فافصحوا بلاغة عن الجلال البشرى .. وا اسفاه ! ليس كل ذلك الان الا حلما ، تاييس على وشك الموت ! اواه ! ما أشد بداهة انى مائت

لموتها ! ولكن .. انى لك الموت ايها النطفة القذرة الجافة ، انى لك الموت ايها الجنين المنقوع في مرارة الضر وحرارة الدمع ؟ ايها السقط الشقى هل يعلق بوهمك انك ستذوق طعم الموت ، انت الذى لم يعرف الحياة ؟ لكن لعل الله يكون موجودا فيقضى على بعذاب الاخرة ! هذا رجائى ومشتهاى ، ايها الاله الذى امقته ، استجب لى ! اقذف بى الى جهنمك وبئس المصير ، وانى لكى اكرهك على فعل ذلك ... في وجهك ... يجب ان اجد جحيما ابديا لا ينطفىء سعيره ، ولا تخبو نيرانه ، كيما استطيع ان ابخر فيها ابدية السخط التى احتوت عليها نفسى .

. . . .

وعند طلوع الفجر ، تلقت « البين » كاهن انصينا في مدخل الصوامع ، فقالت له :

ـ مرحبا بك ايها الاب الموقر في اخبية السلام ، انك آت بلا شك لتبارك القديسة التى اعطيتنا اياها ، انت تعلم ان الله قد دعاها اليه ، وكيف لا تعلم البشائر التى يحملها الملائكة من بادية الى بادية؟ حقا لقد دنت تاييس من نهايتها السعيدة ، فقد تممت اعمالها ، وعلى ان اخبرك بكلمات وجيزة عن سيرها في الزمن الذى قضته بيننا بعد رحيلك ، وكانت حبيسة الصومعة التى اغلقتها بخاتمك ، أرسلت اليها مع طعامها نايا كالذى تضرب به الفتيات اللاتى يحترفن حرفتها في الولائم والحفلات ، فعلت ذلك لكيلا تتعبها الهموم وتكتئب ، وكى تظهر امام الله سبحانه من البراعة والمواهب ما لايقل عما اظهرته امام الناس ، ولقد احسنت صنعا وكنت صادقة الفراسة ، لان تاييس اخذت توقع يوميا على الناى مدائح « مخلص البشر » .

وقالت العذارى اللائى شاقتهن انغام الناى الخفى :

ـ انا نسمع عندليب الخمائل السماوية ، نسمع تمة (١) يسوع المصلوب التى تحتضر ... كذلك قضت تاييس توبتها ، وبعد ستين يوما فتح الباب الذى ختمته من تلقاء نفسه ، وانكسر الختم الصلصالى من غير ان تمسه يد بشرية ، فادركت من هذه العلامة

---

(١) اى وزة عراقية وهى بالافرنسية «Cygne» وبالانكليزية «Swan»

ان الله تعالى قد غفر للضارية بالتائى خطاياها ؛ ومن ذلك الحين شاركت بناتى فى عيشهن ، فكانت تعمل وتصلى معهن ، وصارت لهن قدوة صالحة بما فى حركاتها وكلماتها من حشمة ووقار ،

وكانت يبثهن مثال الخفر والعفاف ؛ وفى بعض الاوقات ، كان يتقسمها الهم والشجن ، ويتناوبها الغم والحزن ؛ غير ان هذه السحب ما لبثت ان تقشعت ، ولما رايت انها شديدة التعلق بالله

منقادة اليه بالايمان والامل والحب ؛ لم اخف ان استخدم فنها بله جمالها ، فى تهذيب اخواتها ، فدعوتها لتمثل امامنا اعمال النساء الشهيرات ، والعذارى العاقلات اللاتى ذكرهن الكتاب

المقدس ، فمثلت استر ، ودبورة ، ويهوديت ، ومريم اخت لعازر، ومريم ام يسوع ؛ انى عالمة علم اليقين يا ابى الموقر بما يثال قداستك وورعك من جرح لذكرى تلك المشاهد التمثيلية ، بيد

انك لو كنت رايتها فى تلك المشاهد الصالحة تتفجر فى عبراتها الصادقة ، وتمد ذراعيها كالسعف نحو السماء ، اذن لتاثرت أشد تاثر ، سست النساء ورعيتهن زمانا طويلا ؛ ومن مبدئى الا اقاوم

طبيعتهن ؛ فليست كل البذور تنبت ازهارا متشابهة ، وليست كل النفوس تطهر بوسيلة واحدة ، ويجب أن نذكر ايضا ان تاييس قد وهبت نفسها لله وهى لا تزال شائقة فى ريعان صباها ، وأن تقدمة

مثل هذه التضحية ، التى ان لم تكن منقطعة النظير ، فهى بلا مراء نادرة الحصول ، هذه الملاحة ، لونها الطبيعى ، لم تفارقها

بعد ثلاثة اشهر من اصابتها بالحمى التى تكاد تودى بها ؛ وكانت اثناء مرضها تطلب بالحاح أن ارى السماء ، فامرت بان تنقل فى

كل صباح الى صحن الدير قرب البئر تحت شجرة التين القديمة ، التى فى ظلها كانت راهبات الدير يقمن محافلهن ، ستجدها هناك

ايها الاب المحترم ، لكن خف واسرع ، ان الله يدعوها اليه ، ولا تلبث ان تلبى الدعوة ؛ وفى هذا المساء يغطى الكفن ذلك المحيا الذى فطره الله لافساد العالم واصلاحه .

تبع بافنوس البين الى الساحة المغمورة بنور الصباح ، وقد كون الحمام على طول السقف المتخذ من الآجر صفا من اللآلىء ؛ وكانت تاييس راقدة على فراش فى ظل شجرة التين ، يغشاها

بياض ناصع ، وقد تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقفت بجانبها نساء مقنعات ، يرددن صلاة النزع :

ــ ارحمنى يا الله كعظيم رحمتك حسب كثرة رأفتك امح معاصى!

فناداها :

ــ تاييس !

فرفعت جفنيها ، وولت مقلتيها البيضاوين صوب الصوت .

فاشارت البين الى النساء المحجبات أن يتراجعن بضع خطوات .

وكرر الراهب نداءه :

ــ تاييس !

فرفعت راسها ، وخرج من بين شفتيها الباهتتين همس خافت :

ــ هذا انت يا ابى ؟.. اتذكر ماء الينبوع ، والتمر الذى لما هززنا الينا الجذع تساقط رطبا جنيا ! .. فى ذلك اليوم يا ابى ، ولدت للحب ... للحياة ...

ثم انقطعت عن الكلام ، وعاد راسها فسقط .

دهمها الموت ، وكلل العرق البارد جبينها ، ومزق جلال السكوت صوت يمامة نائحة ... ثم امتزجت تنهدات الراهب وزفراته بمزامير العذارى :

ــ اغسلنى كثيرا من اثمى ومن خطيئتى طهرنى ، لانى عارف بمعاصى وخطيئتى امامى دائما .

ثم جلست تاييس فجاة فى فراشها ، وانفتحت عيناها البنفسجيتان ، وقالت وهى تحدق الى الافق ، وقد مدت ذراعيها نحو التلال البعيدة :

ــ هوذا ورد فجر الصباح الابدى

ولمعت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها ؛ وبدت احلى واجمل مما كانت فى أى وقت من الاوقات ، فركع بافنوس امامها ، واحتضنها بين ذراعيه الاسمرين ، وصرخ بصوت بلغ من الغرابة مبلغا انكره هو نفسه :

ــ لا تموتى ! انى احبك فلا تموتى ! اسمعينى يا حبيبتى تاييس ، لقد خدعتك ومكرت بك ، وما كنت الا معتوها شقيا ، ان الله والسموات ليست شيئا مذكورا ، وما من شيء له وزن ،

وهو حق ، الا الحياة الدنيا متاع الغرور ، والا الحب الجسدي ! اني احبك ! فلا تموتي ، لا تدعني للمنون ! ذلك يكون محالا وامرا باطلا ، انك جميلة فتانة آية الآيات ، تعالي نتبادل الحب ونرشف كئوسه ، اصغي لي ياحبيبتي واسمعيني وقولي : « سأعيش ، لاني راغبة في العيش ، سوف احيا ، اني اريد الحياة » . تاييس ! تاييس ! انهضي ! ..

لم تسمعه ، كانت عيناها تسبحان في اللانهاية ...

تمتمت :

ــ السماء تفتح ، اني ارى الملائكة والانبياء والقديسين ... في وسطهم تيودور الصالح مملوء اليدين بالازهار ، انه يبسم لي ، ويدعوني اليه ... ياتي الي ملكان ، ها هما يقتربان ... ما اجملهما ! .. اني ارى الله .

تنهدت ابتهاجا وانقلب رأسها على الوسادة بغير حراك ...

ماتت تاييس ...

فعانقها بافنوس عناق اليأس والقنوط الاخير ، وقد التهمتها عيناه باشتهاء ... وغل ... وحب ...

فزجرته البين قائلة :

ــ اخسأ يا لعين !

ووضعت اصابعها برفق على جفني المائتة ، فتراجع بافنوس وهو يرتجف ، وعيناه تشتعلان ، واحس بالارض تسيخ وتنشق تحت قدميه ...

ثم رتل العذارى نشيد زكريا :

ــ تبارك الرب اله اسرائيل ...

وما لبثت اصواتهن أن انقطعت في حلوقهن ، اذ رأين وجه الراهب ، فولين ، مذعورات ، صارخات :

ــ وطواط ! وطواط

فقد حلت ببافنوس نقمة ربه ، فسخطه ، فاستحال الى شخص قبيح مروع ، حتى اذا ما مر بيده على وجهه ، احس بشاعة خلقته ...

تمت